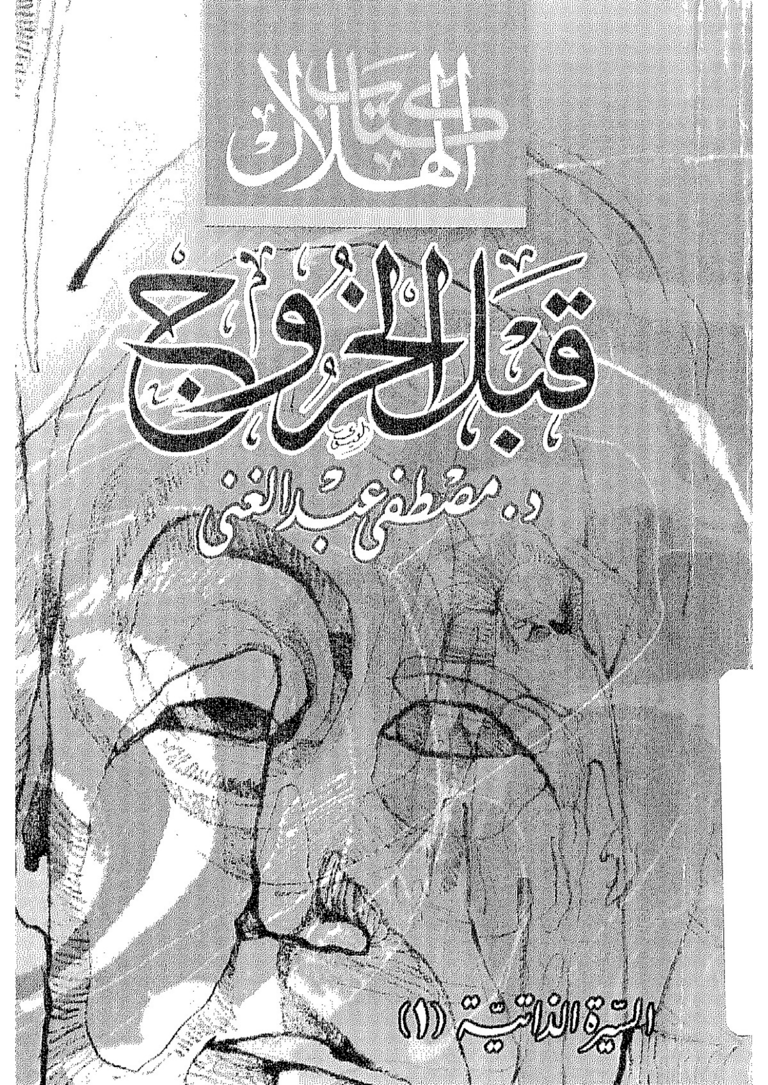

كتاب الهلال
قبل الخروج
د. مصطفى عبد الغنى
السيرة الذاتية (١)

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن مؤسسة دار الهلال



الإصدار الأول/ يونيو ١٩٥١

الإدارة

القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط)، المكاتبات: ص. ب: ٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا: المصور - القاهرة ج. م. ع.

تلكس:

Telex 92703 hilal u n

فاكس:

FAX: 3625469

العدد ٦٧٤ - فبراير (شباط) ٢٠٠٧م - محرم ١٤٢٨هـ

طوبة ١٧٢٣ ق

ثمن النسخة: سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢٠٠٠ فلس - الكويت ١,٢٥٠ فلسا - السعودية ١٢ريالا - البحرين ١,٢ دينار - قطر ١٢ ريالا - الإمارات ١٢ درهما - سلطنة عمان ١,٢ ريال - اليمن ٤٠٠ ريال - المغرب ٤٠ درهما - فلسطين ٣,٥ دولار - سويسرا ٤ فرنكات - لندن ٢,٥ جك

البريد الإلكترونى:

larhilal @ idsc. gov. eg



قبل الخروج

مشاهد من سيرة حياة

السيرة الذاتية (١)

د. مصطفى عبد الغني

دار الهلال

الغلاف للفنان:

أحمد أبوالسعود

الخطوط للفنان:

محمد العيسوى

«إنا عـرضنا الأمـانة على السـمـاوات والأرض والجبـال فأبين أن يحـملنها وأشـفقن منها وحملـها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا»

(الأحزاب)

قيل لنوح لما احتضر:

- كيف وجدت الدنيا ؟.

قال: كبيت له بابان دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر.

(عرائس المجالس للثعالبى)

تقديم

مشاهد أولية

هذه مشاهد أولية من السيرة الذاتية أو هى بعض مشاهد سعيت لنقلها من السيرة الذاتية الموغلة فى البعد إلى حد ما، فجاءت بعد انقاذ مايمكن انقاذه من الأوراق القديمة أو الدلالات المنفصلة فى العقل الباطن ـ أشبه بمقاطع سعى صاحبها أمام كرسى الاعتراف لينقل بعضها بأمانة وبراءة ..

إنها محاولة ـ مجرد محاولة - لاستعادة الزمن الماضى.. وهل يمكن لكائن ما مهما تكن قدراته أن يستعيد لحظات الزمان وأسراره وغموضه وتفاصيله

□□□

هى محاولة لم اسع فيها لا ستعيد هذه السيرة; فاستعير لها فضاء فنيا بقصد بنائها من جديد لاؤكد بها (الخطاب) غير المعلن، كما فعل الكثير،

وإنما آثرت أن نسعى بشكل واضح أشد الوضوح لنقل بعض ما اختزنته الذاكرة قبل الخروج الأخير.

أو بعض ـ ربما ـ ، بقى من أعشاب هذه الذاكرة بعد عصف التربة والجذور..

أو بعض ـ ربما ـ ما بقى من الجذور..

إن هذه السيرة يمكن أن أجدها فى أعمالى كلها التى تربو على الستين عملا بين فلسفة تاريخ وتاريخ ونقد أدبى وأدب رحلة.. وما إلى ذلك، إنما قصدت هنا أن أجرد السيرة من أى قضية أخرى ,واستعيد ماتبقى منها ,مستعينا ببعض الاوراق القديمة التى استنقذتها من انياب الزمن, وحاولت أن أعيد كتابتها من جديد.

أدرك جيدا أن محاولة نقل(سيرة حياة) او(كتابه) من الذاكرة أزعم أنها سيرة ذاتية على الورق هو شىء أقرب إلى المستحيل ,فلايمكن أن تهبط الى النهر مرتين – كما يقال – إنما سعيت الى ذلك، وأنا ادرك تماما انه حتى لو لم أستطع أن أنقل أو أكتب هذه السيرة ,فعلى الاقل أسعى بأدواتى الفكرية التى هى جزء من تكوينى، الذى

أحاول ان ارصد بعض وحداته وما تبقى منه ..
إن (الخطاب) هنا لم يقم على شكل فكرى أو فنى محدد- كما فعلت فى كتاباتى- وإنما يقوم على فعل(تلقائى) وأوراق قديمة ,ورغبة جامحة لأحاول خلاله نقل ماتبقى من التجربة الحياتية ,او انقاذ بعض ما تبقى ,او كما خيل الىّ أن ما أنقله هنا هو بعض ما تبقى فى ذاكرة متعبة ,وفضاء أوشك على المغيب فى غسق قريب..

إنها محاولة لتذكر وجوه البيدق والخيول قبل أن يسقط الملك..

إنها سيرة ,ولكن شبه ذاتية أو بشكل أدق هى(كتابة) لبعض ماتبقى فى الذاكرة فى هذه السنوات من نهاية بقائى على هذا الكوكب....

وهى سيرة أو خيوط فكرية بقيت من نسيج الزمن، وهى بهذا الشكل تسعى - كما اعتقدت دائما - لانقاذ مايمكن انقاذه من خيط الذاكرة قبل أن أصاب (بالزهايمر)..

ولماذا الزهايمر.. انه توضيح على مستوى الرمز؟.

أقولها برعب هائل وبوضوح أكثر:

إننى أسعى لأفعل ما أفعله قبل أن أصاب بهذه الأعراض التى قد تؤدى الى اضطراب فى وظائف المخ ,فالمعروف أن هذا الاضطراب ينتج عنه وبشكل تدريجى تدمير لقدرات العقل والتذكر والتخيل والتعليم، فأصبح - ممن يعانون هذه (الحالة) فأفقد قدرات التعرف على الذات ,فضلا عن هذه الاعراض التى عرفتها طيلة حياتى.. المزيج من الاحباط والقلق والاكتئاب.والخوف والرعب من المجهول..

وأيا كان السبب فى هذه الحالة ;حالة عضوية تسبب - كما يشير العلم - ترسيب بعض البروتينيات المعروفة باسم (اميلويد) على مسالك الاعصاب مايؤدى لتشوهات فى تلك المسالك او تحدث تلفا فكريا مما يؤدى الى تدمير خلايا الأعصاب ليتقلص حجم المخ ومن ثم القدرة على ممارسة الوعى الطبيعى.

هذا الهاجس كان يسيطر علىَّ فى السنوات الأخيرة، خاصة إننى رأيت أبى فى السنوات

الأخيرة وهو يعانى من القلق والخوف والارهاق الذهنى المتكرر، وخاصة أن هذه المشاعر التى أحاول رصدها خلفت (حالة) من الإرهاق الشديد - الفكرى كما قلت - ممالفت نظر زوجتى, فراحت تلفت نظرى إلى أننى بدأت أنسى أشياء كثيرة، وكنت أردد فى كل مرة اننى لا انسى شيئا, ولاتختلط الأمور لدى، إنما هو الارهاق الذهنى وحاصل الخوف والتأرجح بين الحيرة والحيرة, فراحت على مهل، وفى لغة حرصت ألا تجرح مشاعرى تشير إلى أننى فى حاجة لتناول بعض منشطات الذاكرة، وأن - وهى تحاول أن تصور أن ذلك طبيعى - هذه الحالة طبيعية ,وأن (فلان) و(فلانة) يأخذون هذه المنشطات العقلية..

غضبت بالطبع وحرصت أن يكون غضبى هادئا، كى لا يغلو الموقف أكثر فى جرح مشاعرى

إن مشاعرى أصبحت تدمى الآن من حالة القلق التى تستبد بى، والتى تتحالف مع الحيرة اليومية وعدم النوم - الداء الذى ابتليت به طيلة حياتى; فأنا لم أنم فى أى يوم أكثر من ثلاث ساعات فى

الأربع والعشرين ساعة..

وربما كـان ذلك من بين أهم البـواعث التى دفعت بى لأجمع بعض أوراقى القديمة لأحاول أن أكتب مـايشبـه السيـرة، وأن أحـاول أن أكـون فى كتابتها صادقاً.

فـالسيـرة - كـمـا أردد دائـمـا ليـست هى السيـرة النفسيـة فـقط، وإنما هى أبعـد من ذلك بما فـيـهـا السيـرة العامـة كمـا أشير، أو هى السيـرة الفكرية بالإجمال، ومن ثم ,كانت تتملكنى فى هذا الوقت - رغم أننـى لم أدخل,قط ,هذه المرحلـة (هل أدخل فيـهـا بالفعل.. سؤال أطرحـه وأجيب عنه قبل أن أتعرض لمثل هذه الحالة على المستوى العضوى أو علـى المستـوى الرمـزى - كـمـا أشـرت) .. كـانت تتـملكنى حـالة من (الرعب) أن تظهـر هذه الأعراض غير العادية من التفكير والإدراك والخلل فى الوعى والحـركـة العـضليـة ,ومع التـفـاقم ـ والتراكم مع الوقت ـ أصل إلى فقدان القدرة على الوعى والتفكير حتى أرحل..

وهنا يكون الرحـيل ليس هو الرحـيل الجسـدى,

وإنما – بالنسبة إلىّ – الرحيل منذ أبدأ فى التخبط فى هذه الحالة المرعبة وكثيرا ما كان يختلط فى السنوات الاخيرة هذا الرعب بآيات القرآن الكريم، أو فيما أصوره لنفسى – على الأقل – وأنا أنكب على الكتاب أقرؤه منذ سنوات منعزلا عن الجميع..

إن القرآن الكريم كان يعكس هذه المشاعر أحيانا.. اذن.. ماذا لو كنت محكوما بطول العمر– وهى إرادة الله.. فإن طول العمر سيرتبط بالضعف ,والغالب أن يكون هنا الضعف الفكرى , أو ضعف الوعى السيكولوجى..

إن طول عمر الإنسان لدى – وهو هاجس آخر – قد يكون مرتبطا بدلالة الأثر السلبى للزهايمر وإن كان سيكون أكثر قسوة ,وهنا كثيرا ما أتذكر الآية الكريمة «والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم بعد علم شيئا إن الله عليم قدير» (٧٠ النحل)

وهذه القسوة تبدو فى (الحالة) السيكولوجية، أو طول العمر، هو مايتردد أكثر من مرة حين يؤكد الله عز وجل قدرته التى تصل بالإنسان إلى

(أُرذل) العمر كما تشير الآية الكريمة «ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا» (٥ الحج)

وهو مايؤكده التكرار الدال العميق فى عديد من الآيات التى نجدها فى الكتاب المبين:

«.. وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب إن ذلك على الله يسير» (١١ فاطر)

«ومن نعمره ننكسه فى الخلق أفلا يعقلون» (٦٨ يس)

وعلى هذا النحو، فإن ما ألح علىَّ بشكل مستمر، ,ومازال..– هو أن حال الغياب عن هذا العالم سواء بالمرض أو بأرذل العمر يصل به إلى فعل التنكيس كما تعبر عنه الآية الكريمة....

وفى جميع الحالات فإن الرعب من هذا المصير بالغياب (المرضى) أو (الرمزى) كان يلح علىَّ بشكل هائل طيلة حياتى ,وربما كان هو أحد الدوافع التى جعلتنى أتفرغ من آن لآخر لتلك السطور..

إنه الرعب والخوف الذى جبلت عليه رغم ما سعيت إلى الذهاب إليه من اليقين الإلهى فى النصف الأخير من الستينات من حياتى

غير أن الرعب الذى كان يسيطر علىّ كان يحيطنى بشكل دائم دائب

والخوف الذى لم تستطع قوة فى العالم أن تخلصنى منه يستبد بكيانى

الأرق ,وعدم النوم ,والغضب المكبوت ,والحيرة.. إلى غير ذلك مما يدفع بى إلى قمة الألم النفسى

إننى أمام الشاشة الصغيرة للكومبيوتر الآن والساعة تقترب من الثالثة صباحا تترامى بعض الأصوات البعيدة من الطريق العام

أسمع دقات الساعة الرتيبة فى الركن البعيد من الصالة

بين كل هذا لا يبارحنى قط هذا الألم الذى يشبه الإجهاد الحاد فى رأسى..

أننى أحاول أن أنقذ هنا ماتبقى، ثمة ملاحظة بديهية أخرى، هى أن الكتابة هنا، وأنا أدعوها

شبه ذاتية هى أقرب الى السيرة القومية منها الى السيرة الذاتية، رغم أننى أترك فيها بعضا من خيوط الذاتية ,وبمعنى أكثر دقة ,فاننى حاولت هنا أن أكتب سيرتى التى هى - فى المقام الاول - سيرة لمجتمع فى فترة معينة ,وليست ظلام قوقعة مجهولة فى قاع المحيط..

ومن هنا ,فليست السطور التى أكتبها بشكل مباشر هى التى تحاول أن تعبر عن الذات، وإنما يمكن أن نعثر على هذه الذات- بهذا المعنى- فى كل ما كتبت ,فهناك الكثير من هذه السيرة فى كتاباتى، وربما أكثر دقة فى الطبعات الثانية من أعمالى ,إذ يختلط الذاتى بالقومى، الخاص بالعام..

ولهذا ,فليست النرجسية الذاتية هى التى أسعى إليها، أو أزعم أنها ليست بغيتى بهدف نرجسى أيضا، وإنما قصدت - والله على ما اقول شهيد - أن أنقل فترة من حياة هذا العالم عبر تلك الحروف، ربما منذ منتصف القرن العشرين حتى بدايات القرن الحادى والعشرين..

لقد فكرت - هنا - أن أطلق على هذه السيرة عنوان (قبل الزهايمر) وفكرت مرة أخرى ان أسميها (قبل الخروج) ومرة ثالثة (سيرة قومية)، ومع أن لكل تسمية تفسيرا، فإن الدلالة الأخيرة لهذا كله تغيب فى إشكالية التعريف، وتقذف بى إلى آفاق المجهول الذى أحاول التعبير عنه، رغم أننى عشته

وفى جميع الحالات أسأل نفسى هل أستطيع - حقا أن أعبر عن دخيلتى؟.. ولا أملك إجابة محددة، واردد بينى وبين نفسى إن هى إلا محاولة، وها أنا ذا أفعلها..

إن كل ما أحاوله هنا أن أحاول أن أفصل بعض العناصر فى تكوينى الذاتى ليسهل التعامل معه، وعلى هذا النحو، أحاول هنا أن أتحدث عن عدة عناصر هى فى السياق الأخير تمثل (منظومة) واحدة لذاتى، إننى فى جميع الحالات أحاول التعامل مع بعض العناصر للوصول إلى الكلية العضوية التى أسميها (الذات)، ولما كان إدراكى يعى أنه من المستحيل أن أتحدث عن الذات

بوضوح أو بصدق ,فانني سعيت لانقل هذا عبر هذه العناصر وخلال شكل يعرف بالكولاج ,ربما نجحت فى السياق الأخير من نقل صورة تقريبية ـ من خلاله ـ لهذه الذات، وعلى سبيل المثال ,فقد حاولت هذا فى الفصل الأول الذى عنونته (مشاهد قبل الزهايمر) ورحت أدون فيه عصارة من أو عن التكوين - عن الكتابة - عن المثقف - عن التمرد - عن الحزن والقلق وعن تكوينى ككائن ليلى وجهدت أن يكون هذا وغيره عن قرب قدر المستطاع.

وسعيت لاكتشاف هذه السمات الذاتية فىّ, وبشكل أدق سعيت أن أضعها أمام القارىء لأكتشفها من خلال الكتابة، أى من خلال مرآة القارىء، ولان هذا الاكتشاف لن يتسنى لى معرفته، فلن أكون هناك فى هذا الوقت ,فقد استعنت بالله وسعيت لأرسم عناصر للذات موضوع الكتابة (ولا أقول الذات..) فالفارق كبير بين أن أحاول أن أكتب لأشير إلى الذات وبين أن تحاول ان تكتب الذات شيئا يكون أقرب إلى القراءة

الصادقة ، ومن ثم فإن هذه المحاولة هى بنية نصية لا تنتمى - بالضرورة - إلى موضعها فى السيرة، فمن يستطيع حقا - خاصة فى هذا العالم الذى نعيش فيه فى جنوب العالم - أن يكتب الذات أو يترك الذات لتعبر عن نفسها ؟.. أن المشكلة أعقد مما يتصور، فإذا حاول الكاتب أن ينقل ما اعتراه أو يعتريه ,فان (البنية) نفسها يعوزها الكثير من الصدق أو الاستعادة الصادقة، فانا اعتقد بل أوقن أن إستعادة الزمن - كما هو - شىء اقرب إلى السراب منه إلى أى شىء آخر، ومن هنا ,فقد عنيت أن تكون سيرة - وإن كان فيها تجاوز - فهى - بالقطع - غير ذاتية - أى محاولة لوضع ضربات فرشاة - وإن سعيت فى تصويبها بدقة - على اللوحة، فإنها لا تزيد على أن تكون شيئا أقرب إلى الكولاج فى نهاية الأمر..

ولأضرب مثالا واحدا على ذلك إننى فى محاولة تصور أن البنية الذاتية هنا تحتوى على عدة سمات، وجدت مع الوقت ـ وربما بمحض المصادفة ـ أن هذه السمات تتداخل، وربما

تتماهى بشكل عادى، هنا يقول القارىء: أليس ذلك طبيعيا، فكل ما يحاول الكاتب التعبير عنه هو عملية تنطوى على تعبير آت من مصدر واحد هو الذاكرة المحددة.. غير أن إعادة النظر (وعفوا لإيثار ضمير المتكلم) ترينى ان رؤية تلك العناصر فى الذات إنما تحتوى على تناقضات كثيرة ,غير أن هذا أيضا يعود بى إلى ماكنت أثيره منذ قليل, حسنا، أليس التعبير عن عدة سمات ناجما - مهما يكن تنافرها - عن ذاكرة واحدة، ولأن الذاكرة ليست خيطا واحدا بنسيج محدد ولون محدد ,وإنما بنسيج متنافر الخيوط.. وهنا أوافق على ما ينطوى عليه هذا التوصيف من رؤية الذات الكاتبة هنا بسماتها الخاصة، وهو مايفترق فيه كل كاتب عن الآخر.. لكن.. وهنا اشغف جدا بالتوقيف ... ولكن، ان فى دخيلتى من التناقض والتنافر ما أعجز عن فهمه ,او ما أجهل بواعثه فى الذات الإنسانية..

لقد أفضت فى عدة محددات عن الشخصية، لكننى وجدت هذه المحددات تتداخل وتشتجر وتتعقد وتتنازع بشكل غريب.. إننى فى الوقت الذى أسعى

فيه إلى شىء من (التعاقد) بينى وبين الذات فاتحدث بوضوح - هكذا أحدث نفسى، فأتوقف عند الذات أو التكوين العقلانى، فإننى لا ألبث أن أتحدث عن الرومانسية، فزع فى أول الأمر، إذن كيف تكون عقلانيا خالصا ورومانسيا فى آن معا، هل هى الثنائية المنفرة أو المنفردة فى ثوب بشرى يلعب فيه الإيهام والمتخيل دورا ليصل بى إلى محاولة قصوى للصدق..

احترام محددات السرد هنا يدفعنى دفعا للخروج من السرد الطبيعى الى الانزياح الغريب.. إننى مع الكتابة الذاتية السردية أصبح حائرا، فلا أستطيع أن أقع بينى وبين نفسى على تفسير متسق ,فأنا لا أسعى للوقوف أمام مرايا الذات وأنا أهيىء نفسى لمسحة منظمة أو منسقة وإنما أسعى لنقل المحددات واستجلابها من مخزون مابقى من الوعى بشىء من الصدق، اذن، كيف لى أن أزعم اتساقا بين كل هذه المحددات المتناقضة: من التمرد والعقلانية والرومانسية والحزن فى آن واحد: ما الذى يجمع مثل هذه المحددات فى مركزية التعبير عن الذات باستنفاد مناطق الصدق فيها.

- ما الذى يجمع بين الرومانسية والعقلانية.

مالذى يدفعنى للتعامل مع العمليات السردية التى تصل فى التعبير إلى أقصى درجات (العقلانية) وفى الوقت نفسه أهبط عنها لأصل الى أسفل درجة من درجات الرومانسية وهل يتصادم العقل مع الرمانسية.

وهل ينطوى الوعى على حيز مجهول من اللاوعى فى دخيلة الإنسان.

أم أن المجهول هنا هو ما أحاول الاشارة الى الكتل السوداء الساجية وانا اشير الى شىء - ربما من الوهم - يشير إلى أشعة من الضوء الخفيض.

هل هى سرداب الذات الغامضة ها أنا أجد هذه الأوراق بين يدى فى يوم من هذه الأيام الأخيرة التى أحياها (بالمصادفة اليوم ٢٦ فبراير ٢٠٠٦) أى فى هذه الفترة الصعبة التى أعيش فيها هذه الإزدواجية المريعة المروعة فى الذاكرة، إننى هذه الأيام أتحول بين عالمين ,يعصف بى الألم، أحس رأسى يكاد ينفجر ,لا أعرف النوم، أحاول العود إلى نفسى بتجرع كم كبير من العقاقير التى كتبها

لى الطبيب بعد أن ذهبت إليه اشكو من القلق الشديد الذى أصبح يسيطر علىّ وفى الوقت نفسه الضجر بكل شىء والسهر أو السهاد الذى لا أعرف النوم معه ,ربما يمر يومان أو ثلاثة ايام دون أن أعرف هذا النوم الضيف العزيز الذى لايحب مصاحبتى كثيرا..

الآن أحيا هذه الحالة من الألم العضوى فى رأسى والألم النفسى فى وعيى، وغياب أشياء كثيرة من الذاكرة يحل محلها الألم الشديد الذى يسيطر على رأسى ,وكثيرا ما يحول الرمادى إلى السواد القاتم فى عالم هذه الفترة الصعبة من حياتى ,وجدت اثناء عبثى ببعض الأوراق هذه الأوراق الذاتية، كنت نسيت أننى كتبتها، كنت نسيت اننى ظللت لسنوات كلما ذهبت إلى رحلة خارج الوطن أحمل معى بعض الأوراق القديمة أو الافكار الجديدة، ثم أنفرد بها فى سفرتى بعيدا عن العاصمة والأهل والصخب، وربما ذكرت من هذا انفرادى بنفسى لأيام ,ولأكثر من مرة حين كنت اذهب الى تونس ,فاغيب فى زغوان ,وهى تبعد عن

تونس العاصمة قرابة ستين كيلومترا، ثم أحاول أن يمضى اليوم الاول من المؤتمر، ثم أختفى بقية الأيام فى الجبال الشاسعة مع اوراقى وافكارى لأحاول أن أستيعد وأكتب ما يمكن أن يسمى بسفر الخروج او بعضا من السيرة الذاتية أو الفكرية، ها أنا أستعيد بعض هذه الأيام الآن وأعود إلى نفسى وإلى هذا الجهاز - الكومبيوتر الشخصى - لأسجل بعض أحداث وأفكار من هذه الساعات والأيام الفانية..)

فلأترك كل شىء الآن، لأغيب فى تأملاتى التى تأخذنى إلى حالة من الصمت والألم الفكرى.وآلام الرأس والقلب والوجدان.

(القلب/ العقل) وثمة اعتراف تأخرت كثيرا فى إثباته هنا، هو أن مادفعنى لكتابة هذه السطور إنما هو ضرب من الحس الوجدانى الذى يمثله فى كثير من الأحيان الرعب، الرعب المميت من شحوب الذاكرة أو غياب بعض أغصانها فى خيال حزين

إنه الرعب من الزهايمر..

ليس معنى هذا أننى أخضع فى تكوينى للانفعال

أو ـ حتى ـ المشاعر الوجدانية التى تقترب من الخيال، وإنما لدى قدر هائل فى تكوينى الذاتى من العقلانية الصارمة..

وهنا أصل للشهادة التى أحب أن أسجلها هنا، والآن..

إننى لا أستطيع أن أغفل الحس الوجدانى الشفيف فى أعماقى. كما أننى لا أستطيع أن أبعد الحس العقلى الصارم فى تكوينى..

إنها الازدواجية فى النظرة العامة

غير أن العود إلى قاع القدر الذى يغلى يؤكد أن مايمكن أن نسميه (ازدواجية) بين العقل والوجدان أو بين الوجدان والعقل إنما هو وعى واحد أعيه تماما أو حس تتعدد خيوطه فى النسيج الذاتى وتتحدد فى اللون الواحد.. إنه التكوين الذاتى..

ورغم ما أعتقده أحيانا أننى أتمزق كثيرا من هذا الحس الشفيف بالرومانسية أو المثالية، فإننى أؤمن أن هذا الحس هو من طبيعة التكوين العام ليس منفصلا عنه، فالعقل والقلب فى النهاية هما

(الوعى) الذاتى هنا.

وهو المعنى الذى يفهم حين نتذكر قول النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) حين يتحدث بضمير المخاطب فيقول(استفت قلبك) وهو المعنى الذى يفهم منه أن القلب مكانه العقل أو العقل هو المعنى الآخر لكلمة القلب ,فحين نقول استفت قلبك, كأننا نقول استفت عقلك ,والنصوص العقيدية هنا تؤكد هذا وتشير إليه كثيرا.

وهو ما يذكرنا بتعبير القلب فى الفلسفة المصرية القديمة ,فهو يعنى- عبر الهيروغليفية فى عديد من جدران المعابد- الوعى المركزى للإنسان حيث يمكن أن نرى الوعى بمعنى(العقل) وما يقترب منها من دلالات أخرى..

إن الجدران الفرعونية تمنحنا معانى كثيرة لهذه المشاعر الوجدانية الكثيرة للانسان، وهو مايظهر فى تعبيرى (ibاب) و(h3tyحاتى) بمعنى القلب..

وعبورا فوق تفسيرات وتحليلات لغوية كثيرة لهذه التعبيرات ,فان المعانى المتراكمة تمنحنا فى السياق الأخير دلالتين مترادفتين، تمنحان معنى

واحدا هو العقل بالمعنى المعروف..

ومع أننا لا نستطيع أن نفلت من التفسير الأخير الذى يحيلنا لدلالات كثيرة تشير الى اسرار عالم الفراعين ,فان القلب يمنح فى دلالاته الكثيرةمعنى الفكر والوعى والعقل، فضلا عما تعنيه حين نتقصى بقية المعانى عند استخدامها كظرف لنكتشف أن (المكان) أحد المعانى التى تضيف الى المعنى الواحد القلب/ العقل معنى التقدم والذكاء الى أخر ما تمنحه لنا هذه التعبيرات.

ثمة أمر آخر اشعر به دائما ولا أصرح به لنفسى ,وإنما يظل يراودنى دائما ,هو هذه الحالة الحادة من الحزن الشديد أو الأرق الشديد الذى يتغلغل فى كيانى حتى أننى لاحس أحيانا بالعجز الشديد عن ممارسة الحياة. ثم إن هذا الحزن يجعلنى أجيانا غير قادر بالمرة على ممارسة الحياة، فأحاول أن أحس بالحياة من خلال التسجيل.. تسجيل شىء يشبه النازع الشخصى أكثر منه كتابة للسيرة الذاتية..

ويجب أن أسارع هنا بالقول إن الهدف مما

أفعله الآن ليس كتابة سيرة ذاتية بالقطع ,ولكننى أسعى لرسم (حالة) من حالات الإنسان - إنسان - فى فترة زمنية معينة وتغييرات خاصة ,فلم يكن يهمنى وأعتقد أنه لا يهم أحداً أن يعرف كيف ولدت وكيف عشت سنواتى الأولى والأخيرة إلا بقدر أن يعكس ذلك (حالة) لإنسان عاش فى هذه الفترة

- مناخ.
- إنسان.
- ائتلاف بين المناخ والإنسان.
- (حالة) ينتهى إليها هذا التفاعل او ذاك.
- (خطاب) يعكس دلالة ذلك كله فى مرآة الواقع الاجتماعى والسياسى.. الخ.

فالمسألة لم تكن ذاتية بأى صورة فى رأيى.

(الذات/ العالم) ..كما أننى هنا أحاول أن أستعيد الماضى بأكثر من وسيلة ,فأنا أعلم جيدا أننى لن أكتب (عقدا) مع القارىء أضمن له فيه أننى سأكتب السيرة الذاتية هنا عبر مرآة الذات,

وإنما هى ما بقى للذاكرة من صورة الذات بعد أن ابتعدت عن المرآة .فها أنا ذا فى منتصف الستينات، أى جاوزت الخمسين إلى منتصفه .السن الذى يحمل فيها أى إنسان محاذير كثيرة حين يسعى لتذكر سنواته البعيدة أو - حتى - القريبة..

ومن هنا فإننى سوف أجتهد، وبصدق .وبدون شوفونية ليتحول ما أجده فى ذاكرتى- التى جفت فيها كثير من الاعشاب - إلى سرد متعين قريب من الواقع الذى كان..

وهنا أسرع بالقول فأضيف: إننى فى هذا سوف أجتهد إلى حد بعيد أيضا لأقترب أكثر من الذات, ففضلا عن إيثارى الصادق لنقل الماضى عبر مرآة الذاكرة، فإننى سأستعين هنا ببعض ما وجدته من بقايا أوراق أو مفكرات كثيرة ضاع الكثير منها عبر الزمن، والغياب الطويل فى جيش عبد الناصر, والغياب كثيرا فى أثناء انتقالى من مكان أقطن فيه إلى مكان جديد .والغياب كثيرا عن أحداث أعتقد أننى أعرفها جيدا .لكننى أؤمن أيضا أننى أعرفها الآن، ليس كما كانت فى الزمن البعيد، فى

مرآة الذاكرة الغائبة المصحوبة بالقلق ـ لا الحنين ـ ليس فى مرآة حضور المرآة الحاضرة المصحوبة بالقلق والحزن..

وعلى هذا النحو، فأنا أؤمن أن ماحاولت أن أستعين به هنا وأستعيده (عبر أوراق بين يدى) لا يعدو(خطاب) الذاكرة الآن وهى تقرأ(خطاب) الاوراق التى كانت..

الرؤية فى المرآة غير الرؤية عن المرآة دون شك

ومن هنا، فأنا أسعى إلى عدة أمور هنا:

أولا: استعادة الذات عبر السرد؛ والسرد عبر استعادة مافى المرآة..

ثانيا: استعادة الزمن عبر الذات ,والزمن هنا غير منفصل عن الذات

ثالثا: تأكيد بعض أفكارى الأساسية: الذات, الوعى، القيمة، الهوية.

رابعا: تحديد لأحداث تمضى فى تحولات سيسيولوجية فى علاقتها بالذات وليس عبر عوامل

سيكولوجية فقط

إن الذات هنا تتماهى ـ دون أن تدرى ـ مع المجتمع ,رغم إحساس صاحبها منذ فترة الطفولة بانطوائه وابتعاده عن المجتمع الذى لم يستطع أن يجعله من رموزه

وهو مايعنى أن المحاولة تعى دائما تبلور الذات ـ اجتماعيا ـ كلما تحررت من المثالية النرجسية وطفقت الى المركزية القومية والاجتماعية..

معنى هذا، أننى هنا أن التزم بتعريف السيرة الذاتية ما هو سائد فى الادبيات الغربية من الاقتصار على الذات او التفرد بايغال فى عالمها فحسب وإنما أعى أن الذات هى نتاج المناخ الذى عشت فيه وليس تفردا عنه...

الذات هنا - رغم انطوائيتها وتفردها منذ فترات مبكرة - مرتبطة أشد الارتباط بالمجتمع خاصة فى تحولاته المتسارعة فى النصف الأخير من القرن العشرين، وهو نصف القرن الذى عشت فيه هذا الكم الهائل من الأحداث المفجعة والانتصارات التى تحولت ـ بشكل درامى ـ إلى

أحداث ميلودرامية على أثر هزيمة ١٩٦٧ ووجودى فى الصحراء لثمانى سنوات ,ومعاناتى المستمرة لسنوات لقذائف الفانتوم الإسرائيلية والغدر اليومى الذى عانيناه عام (١٩٦٩)..

إن المحاولة هنا لا تتوقف عند خيوط الطفولة وحسب ,وإنما تتحول الطفولة فى تصاعدها الزمنى مع أحداث الخمسينات وأحوال الثمانينات والتسعينيات وتداعيات الأحداث التالية قبل عاصفة مانهاتن أو بعدها فى بداية القرن الحادى والعشرين..

إننى ـ بوضوح ـ لا أسعى لسيرة ذاتية (محارية) تغلق على نفسها رغم مافيها من خصوصيات إضافية، إنما هى سيرة لأحداث قرن من الزمان تتابعت فيه طبقات الأركيولوجيا الزمنية التى عرفها جيلنا منذ ولد عام ١٩٤٧ - قبل عام من إعلان النكبة - وإلى بدايات القرن الحادى والعشرين بكل مافى هذه الفترة من أحداث غير عادية.

ومع ذلك، فإننى أضيف ـ كيلا أفهم بشكل

خاطئ - إن إكمال هذه السيرة/ الرؤية بهذا السياق المشار إليه لايتم دون إحالة القارئ لأعمالى كلها بما فيها الإبداع..

إن كل ما أسعى إليه هنا هو استنقاذ بعض أعواد أعشاب الذاكرة قبل أن تجف تماما, واستعادة بعضها - حتى - بعد أن جفت لأعيد الإحساس بها عبر بعض (المخطوطات) التى حفظتها الصدفة من كتاباتى منذ فترة بعيدة منذ طفولتنى، ربما.

أمر أخر وددت الإشارة إليه هنا أن الرعب الذى أحسه دائما كلما تذكرت النهاية.. يفوق أى وصف, ليس الرعب من النهاية، فأنا سأرحل يوما ما, وهذا من طبيعة الحياة والوجود, وإنما (كيف) سأرحل..

الرعب من (كيفية) الختام كيف سيكون الختام.. أخشى أن أفقد بعض خلايا المخ، فأصاب بهذا المرض الزهايمر AlzhiemerDisease المخيف.. وهو مالم يبارح ذهنى قط منذ رحل أبى، وأخشى أن أصاب فى بعض أنحاء من تكوينى الجسمانى, فأفقد فضيلة (الحركة) المستمرة التى تجرى فى

دمى وتكوينى، وأخشى أن أصاب بمرض ما خفى أو شىء ما يعوق عقلى عن التفكير أو جسمى عن الحضور الدائم..

إنه مرض يفقد به الإنسان تدريجيا الذاكرة, بحيث لايعود يقدر على أداء عمله، ثم يفقد القدرة على استخدام الأدوات والأشياء التى دأب قبلا على استعمالها، ويصل النسيان إلى درجة مفزعة: الحركة العادية عدم تذكر الأحداث الماضية. عدم فهم أو عدم تذكر مايجرى حوله فى الحاضر- وليس فى الماضى فقط - بل ويضرب المرض فى حياته بعنف فلا يعرف شيئا مما حوله من أحداث وأولاد وأفراد عائلة، بل يأتى وقت لا يكاد يتذكر فيه أى شىء، لا التفكير العادى الذى يغيب ,وانما ـ أيضا ـ الحركة التى لا تستجيب لصاحبها ,إنه النسيان/ الأبيض..

إنه ما أخشاه ,وأنا اقترب من الستين الآن.. صحيح أننى مازلت أحتفظ بالكثير ,غير أننى أعتقد ـ وربما يكون ذلك طبيعيا ـ أننى بدأت أغيب أو يغيب عنى صفحات بعيدة من الماضى.. ومن هنا أصاب أكثر بالرعب.

رعب الختام يتملكنى ,ولا يفارقنى أبدا..
ودعاء حسن الختام لا يبتعد عنى أبدا..

فأعراض النهاية كثيرة ,خاصة حين يصل الإنسان إلى مرحلة متأخرة من العمر، أقلها ماشكا منه الشاعر القديم لبيد حين وصل إلى الثمانين حين أحوجته - أى الثمانين - إلى ترجمان, أحوجت اذنه - فى البيت الشعرى المعروف -.. إلى ترجمان وهو الذى رد به لبيد بن أبى ربيعة على معاوية حين سأله عن حاله ,فقال مامعناه, لاشىء ,إنه الوقت الذى يجب أن أسكن فيه وأركن إلى (وادى الراحة الأبدية)..

وهو هو مايذكرنى بشكل ما - وإن نقصه التطابق - حين حزن خالد بن الوليد وهو على فراش المرض، ما أنه مع كل وعيه وحياته الطويلة العريضة الجهادية التى عاشها ,فانه - وهو سبب حزنه الشديد - يموت على فراشه (كالبعير)..

إنه الخوف من المستقبل والرعب من طبيعة المصير.

ليس هو - بالقطع - خوفا من الموت، وإنما هو مايسبقه.. والذى قد يطول..

والذى أخشى معه ألا أكون قادرا لأحيا هذه الحياة التى أريدها ,وهو مايذكرنى بأبيات أبى العلاء المعرى:

من السعد فى دنياك أن يهلك الفتى

بهيجاء يغشى أهلها الطعن والضربا

فإن قبيحا بالمسود ضجعة

.... يشكو فيها الى النفر الكربا

إنه الختام ,كيف سيكون.. إننى بين يدى الله، لكننى - كإنسان - لابد وأن يعترينى الخوف للغد..

ترى أى غد ينتظرنى، وأى ختام سأصل إليه..

لقد لملمت بعض هذه الأوراق من قبضة الزمن, وحاولت أن أعيد كتابتها بين تونس والمغرب و,الكويت ومصر والنمسا..

لكننى فى نهاية هذه الكتابات، كنت أحاول -

وقد أقتربت من الستين - أن أجلس فأكتب ,كل (حالة) تستبد بى وقد أصبحت أسير (كآبة مرعبة) يوما بيوم.

فى الفترات الأولى - الكتابات - كنت أستعين ببعض الأوراق القديمة، أو ما يحرك فى بعض الرحلات البعيدة والغربة، وها أنا الآن أكتب مباشرة ما أعيشه من هذا الحزن السرمدى الرهيب.. فى الفترة الاخيرة كان هاجس الرحيل أو الغياب (بالجسد أو بالذهن) أكثر مايسيطر على فى تواجد هذه الحالة (بالروع) أو تجسيدها بشكل مهول..

إن الحس الذى سيطر علىَّ كان هذا الخوف المروع من الخروج.. الخروج من هذا العالم قبل أن أكتب (شهادة) هنيهة عشتها ورحلت عنها دون تنبه كاف .. كانت رواية الخروج للثعالبى تسيطر علىَّ فى هذا الحوار الذى ردده نوح (عليه السلام): - كيف وجدت الدنيا

قال: كبيت له بابان دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر.

وهو الحوار الذى راح يردده أفلاطون بعده بآلاف السنين فى جمهوريته فى (أسطورة الكهف).

فحين أراد أن يعبر عن العملية الجدلية التى ينتقل خلالها العقل من عالم الواقع إلى عالم المثل والأفكار ذلك العالم الأعلى الأزلى الكامل البهى! فقال :

كانت جماعة من البشر فى كهف لم يخرجوا منه قط وكانوا مقيدين فى سلاسل وأصفاد لا تترك للواحد منهم حرية الحركة والالتفات يمينا أو شمالا فوجوههم متجهة دوما نحو الجدار الداخلى للكهف فلم يروا فى حياتهم غيره .. غير أن جذوة نار ملتهبة كانت تتراقص ألسنتها خلفهم فكلما تراقصت ألسنة اللهب تحركت صورهم على جدار الكهف، ولأنهم لم يروا فى حياتهم غير ظلام الكهف والخيالات البادية على الجدار فقد ظن هؤلاء أن هذه هى الحقيقة! بيد أنه فى لحظة ما استطاع أهل الكهف أن يتحرروا من القيود فتمكنوا من الحركة والالتفات فشاهدوا النار من خلفهم

وعرفوا أن ما شاهدوه طيلة عمرهم هو أشباح وظلال متراقصة على الجدار الداخلى .. وساروا نحو مدخل الكهف المظلم حتى خرجوا منه فإذا بالشمس الساطعة تؤذى عيونهم فى الوهلة الأولى ثم تعتاد أبصارهم الضوء فيشاهدون الأشياء فى ضوء النهار ويشاهدون أنفسهم أيضا .

تلك هى (أسطورة الكهف) التى صاغها أفلاطون جاعلا أهل الكهف المقيدين رمزا للإنسان الذى تقتصر معارفه على الحدود الحسية .. والانفكاك من القيد رمزا لتحرر العقل من أسر الخيالات الحسية .. والخروج من الكهف رمزا للتحرر من عالم الصور الشبحية الخادعة .. وشمس النهار رمزا لعالم المثل الذى تنتهى عنده الحركة الجدلية وتتم مشاهدة الحقائق الأزلية .

وهو المعنى الذى تردد فى (القرآن الكريم) قبل هذا كله فى عديد من الآيات وربما كانت الآية من سورة الأحزاب أكثر الآيات شمولا وأبعدها أثرا من هذا كله التى تصور المعنى الذى قصد إليه الله ـ عز وجل ـ من وجود الإنسان فى هذا الكون

المترامى والمعنى الذى يجب التنبه إليه للوصول إلى سبر هذا الواقع الازلى الذى لايتتبه إليه أكثرنا وهو ما تشير إليه هذه الآية الكريمة:

«إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا (صدق الله العظيم).

وبعـد، فـقـد حـملت بعض الأوراق القـديمة والمخطوطات والمذكرات وغيـرها إلى أكثـر من بلد فى السنوات الأخيرة لأكتب مثل هذه السيرة لكننى لم أفعل.. لسبب مـا لم أفعل.. حملتـها مـعى إلى الأردن والبـحـرين وعـمـان والجـزائر ومكنـاس إلى شـارع سـان جرمـان فى وسط باريس إلى طليطلة فى شمـال أسـبـانيـا حـيث الكنائس/ الكاتدرائيات الضخمة .. إلى غير ذلك دون أن أهبط إلى قاع الذات لأسترجع ما كان...

وأذكر أن المرة الوحـيدة التى تمكنت فيـهـا من حبس الذات فى قمـقم العـزيمة كانت فى زغوان، التى لاتبعد عن تونس العاصمة غير مساحة ليست بعيدة، وها أنا أجلس الآن فى هذه البقعة الساكنة النائية بين بعض أوراقى التى حملتها وأحاول أن أكتب صفحات من سفر الخروج.. ها هى الساعة تقترب من الخامسة من يوم الأحد ٢٢ من يونيو (ينطقونه هنا جوان) فى سكون شديد لأحاول أن أسجل ما أريد..

ومن المهم هنا أن أشير إلى العلاقة الغامضة لدى بين هذه الكتابات من السيرة الذاتية والرحلات خاصة، فأرى شيئا واضحا، أننى سعيت بأوراقى القديمة كلما هممت بالسفر إلى أحد البلاد البعيدة فأسعى إلى العود إلى زمن قديم فى مناخ جديد أعرفه لأول مرة، ربما بحثا عن الحيدة فى الكتابة وهى حيدة تبدو مستحيلة غير أنه يبدو أن هناك شيئا واضحا آخر هنا هو الربط بين هذه المحاولة وحيدة السفر وهو مايعود ـ ربما ـ إلى هذا التوجه بالمقابل الذى عرفته الرومانسية الأوروبية الأولى التى انطلقت فيها إلى عالم رومانسى حالم فى الشرق فالبحث عن الرومانسية هنا يظل توقا إلى المجهول الإيجابى الساحر..

وفى الحالتين هو توق للمجهول هروبا من قسوة الحاضر.

ها أنا أحس، وأنا جالس أقلب فى بعض الأوراق الصفراء القديمة شيئا ما فى الفضاء وراء النافذة وأقرب بينى وبين بعض الأوراق المعاصرة لرصد الواقع اليومى المر.. إنه صوت شهيق وزفير

لكائن فضائى ضخم لا أراه لكننى أحس جيدا بما يفعل.. ها أنا أتأهب من جديد للنظر فى الأوراق القديمة قبل أن أكتب..

أستعيد بعض المشاهد الذاتية والفكرية قبل أن أخرج ليس إلى هذا العالم وإنما منه فى سعى متواصل ودائم أن أكون صادقا، ودائب أن أكون واعيا ..

أستعيد بعض المشاهد الذاتية والفكرية من هذه السيرة بعين الطائر فلم أتمهل فى مشهد عند سمات خاصة، لكننى ـ وهو ما لاحظته فى أثناء التدوين ـ كثيرا ما أعود لهذه السمة أو تلك أو هذا الباعث او ذاك فى كل مشهد، فالتكرار يمثل دلالة التراكم على سمة بعينها مثل سمة الحزن الشديد الذى تخصب بها وجدانى منذ فترة مبكرة أو مثل هذه الازدواجية بين النقيض والنقيض فى متتالية الفكر وتهويماته هنا وهناك ..

على إنه من المهم أن أشير هنا قبل أن أتوقف عن إيراد مشاهد السيرة إلى أن ثمة مشاهد كثيرة تعتلج فى كيانى ومشاهد كثيرة توشك أن تفرض نفسها على من آن لآخر غير أن حالة القلق

المروع التى أعيشها إنما تدفعنى أن أطوى بعض هذه المشاهد لئلا يسرقنى الزمن وهو يقين أصبحت معلقا فيه كسيزيف فأسعى لنشر بعض المشاهد التى سجلتها هنا فى غفلة من الزمن وأنا أمتلىء باليقين من أن اللحظة المتسربة من بين يدى يمكن أن أعثر على بعضها فيما سعيت لتسجيله أما اللحظات الأخرى التى تسعى لاستعادة الحاضر (المستقبل) فانما هى تتوزع فى (كل) كتاباتى مع تنوع القضايا وتباين المقصد ..وكثيرا ما كتبت ونشرت من مقالات أو كتب يمكن أن تصنع فى السياق الأخير بانوراما هذه الفترة التى عشتها - والتى سعيت جاهدا لتسجيلها وقد نشرت بعضها فى الدوريات وفى كتبى الكثيرة وجمعت أغلبها فى أربعة أجزاء تحت عنوان (أوراق السنين) آمل أن يمهلنى الزمن لنشرها على عدة أجزاء..

وقد يكون من المهم أن أشير هنا فيما يشبه الشهادة إلى أننى بصدد الكتابة عن فصول أخرى تتهادى مشاهد السيرة الذاتية أو الفكرية لولا أن الخوف و(الروع) الذى أعيش فيها وأنا أقترب من الستين يدفعنى أن أنتهى من هذه الفصول وأدفع

بها إلى المطبعة أو النشر الإليكترونى وهو توق إلى الانتهاء مما بيدى خوفا ورعبا من المجهول.

ومن ذلك مما سأفرغ إليه فى الطبعة الثانية إذا قدر الله عز وجل عدد من المشاهد التى تدور حول رصد ملامح الحس القومى لدى والحس النقدى (خاصة النقد الأدبى) ورصد عدد حيوى من القضايا المهمة فى هذه الحقبة منها : الشللية خاصة فى الثقافة والأدب، إلى غير ذلك من القضايا والمعارك المهمة، أضف إلى ذلك رصد بعض المعارك أو اللقاءات أو الرسائل التى دارت بينى وبين عدد كبير من مثقفى العصر الذى عشت فيه نهايات القرن العشرين وبداية القرن الحادى والعشرين ومن بينهم من مصر وخارجها (مع حفظ الألقاب ..) فؤاد ذكريا وأحمد بهاء الدين وزكى نجيب محمود ولويس عوض وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ وصلاح طاهر وحسن فتحى وأغلبهم ممن احتفظ لدى برسائلهم الخاصة من البعد او القرب منهم عبد العزيز المشرى وعبد الرحمن منيف وحليم بركات وغادة السمان وجبرا إبراهيم جبرا والشاعر البرادونى ومحمود درويش وعبد الله

العروى وليلى العثمان وهانى الراهب ...

بيد أن هذا وغيره مازال يطرح سؤالا معلقا :

وهل نجحت حقا - فى رصد بعض اللحظات الفارقة.

وهل نجحت حقا فى القبض على بعض ساعات أو أيام أو زمن استطال ليغيب فى غمامات السراب البعيد.

وهل كان من الممكن أن أقوم بهذا أو بعضه هنا حقا .

أقول اجتهدت وتركت البقية للقارىء الكريم.. فأنا أؤمن أنه ستأتى الثمرة دائما ليس مع انتظار «جودو» أبدا وإنما مع العمل الصالح والسعى الدؤوب الذى جهدت أن يكون معبرا عن هذه اللحظات الفارقة الغارقة فى المد الزمنى البعيد..

ومهما يكن فإن السيرة الذاتية هنا لاتكتمل دون أن أرصد معك أيها ـ القارىء الكريم ـ السيرة الفكرية فى جزء آخر□

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

مصطفى عبد الغنى

(١)
من سفر الخروج

الخروج من الدلتا
الجذور
من المفكرة

حين أعود إلى الجذور لا أبتعد كثيرا عن وجودى فى القاهرة حيث ميلادى ونشأتى الأولى ,خاصة نشأتى الاجتماعية والثقافية..

غير أن العود إلى الجذور من جديد يحيلنا إلى مساحات بعيدة فارغة.. فأنا أنتمى بالأبوين إلى الدلتا. حيث كانت الهجرات أو الغزوات التى تأتى طيلة التاريخ من الشرق وتتكاثر فى محافظة المنوفية - خاصة لخصوبتها - ولا أمتلك غير بعض الأفكار التى أتذكرها من أقاربى الكثيرين الذين كانوا يتوافدون علينا - وأنا فى سن مبكرة - من إحدى قرى الدلتا ـ المنوفية ـ أتذكر عددا كبيرا من الفلاحين، الذين لا يأتون إلينا إلا بالزيارات المعروفة فى مثل هذه المناسبات وتلك الأيام من الزبد والجبن و(الرقاق).. وما إلى ذلك مما يأتى به الفلاح فى زيارته إلى القاهرة لأحد من أقاربه..

لم أعد أذكر عن هذه الفترة الكثير، فأشباح من أعمامى وعماتى وأولادهم وأولادهن كن يتوافدن علينا من آن لآخر، وأشباح أقل من أقاربى لأمى - عماتها - أقاربها كانوا يأتون إلينا بنفس(الزيارات) وفى حين كان علينا - ونحن ننتمى الى الطبقة الوسطى - أن نتلاقى فى شكل الاحتفاء المعروف فى هذه الظروف.

وأنا هنا لا أسعى فى ذكر هذا لرصد تداخل الماضى بالحاضر أو تأثير الأول على الآخر، وإنما لواجب الجهد فى تذكر فترات طفولتى الأولى لابحث فيها عن الجذور، حتى ولو بدت هنا نوعا من أنواع الأعشاب الجافة، فهى (كل) ماتبقى لى لتذكره الان..

وأنا أجهد فى ذلك وليس بين يدى أوراق قديمة أو بعض الرسائل أو أدوات الذكريات، وإنما هى أشياء أحاول أن أضعها فى مكانها..

كانت الأم تنتمى إلى عائلة (الصباغ) بقرية صغيرة وادعة تعرف باسم (ميت عفيف) و يعرف أهلها بالهدوء والتقى، أما أبى فكان ينتمى الى عائلة (درويش) من قرية أخرى بجانبها، لكنها ـ قرية أبى ـ كان يفصلها من كل الجهات نهر النيل، وهو ما اكتسبت منه أسمها (الجزيرة

الشرقية)..

المهم هنا أن هذه الأصول لم تؤثر فىّ تماما، وإنما هى صور وأشباح أنتمى إليها بالمرجعية الزمن، ورغم أن تأثيرها الآن يكون فيه شك كبير ,فإننى أحسب أن ذكرها قد يضيف صفحات تلقى – دون أن أدرى – على تكوينى بعض الظلال التى لا أستطع الوصول إلى كنه اللاوعى فيها الآن..

والعودة إلى بعض الأوراق من دفاتر وعزب وبلاد(مركز منوف) فى فترة اطلاعى على بعض أوراق دار المحفوظات العمومية بالقلعة – وأنا فى فترة إعداد الأطروحة الجامعية الأولى – عرفت أن أجدادى لأبى يعودون منذ فترة مبكرة من نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين إلى فئة صغار الملاك، وهو ينتمى لأسرة (عبدالله) – العبادلة – مما كان يعنى:

– أن هذا الجد، إنما كان ينتمى الى هذه الفئة التى كانت تعانى من آن لآخر من تزايد الضرائب، ومن ثم، كانت ملكيته الضئيلة تتعرض للزيادة او النقصان..

– إن هذا الجد كان ينتمى فى الأصل الى هؤلاء الفلاحين المصريين الذين كانوا يختلفون كثيرا عن جماعات البدو المغيرين.

وكان من بين أولئك الذين لم يكونوا يملكون - إلى جانب مساحات متواضعة من الأرض - إلا تعليما بسيطا أكثرهم ثقافة كان يعرف القراءة والكتابة بشكل جيد خاصة أن التعليم كان يمثل أهمية كبيرة فى ذلك الوقت..

فالمصرى كان يرى فى التعليم - وهو يملك أرضا كبيرة أو صغيرة - أمرا مهما يحاول أن يصل به إلى أبنائه، فالتعليم كان هو الشيء الوحيد فى الريف المصرى خاصة وفى محافظة مثل المنوفية - على وجه أخص - كان هو الذى يصل بالأبناء إلى فوق أو إلى طبقة أعلى..

والواقع أن التعليم كان من أهم الأسباب - إن لم يكن أهمها على الاطلاق - هو الذى يحدث مثل هذا التغيير الاجتماعى أو (الحراك الاجتماعى) فضلا عما فى الوعى المصرى من قيمة التعليم التى تستحضر وتعمق قيمة الحس الدينى.. ومن هنا، كان المصرى يحرص تمام الحرص على شيئين:

- التعليم.
- الدين.

ومع أن التعليم كان ينتمى الى كبار الملاك، فإن الأحاديث

التى كـانت تدور وأنا طفل ومـازلت أتذكـرهـا جـيـدا أن جـدى لأبى – علـى سـبـيل المثـال – كـان يحـرص أن يركـب أبنـاؤه – أبى وأعـمـامى – كل صـبـاح القـارب الذى يعبـر بهـم إلى قرية مـجاورة، وعلى الشط الآخـر كان الأطفال يركبون (الحـمار) لتوصيلهم إلى (الكتّاب) الذى كان بعيدا إلى حد ما عن القرية التى كانوا يعيشون فيها.

ورغم أن أجدادى كانوا ينتمون – فى الغالب – إلى طبقة صـغـار الملاك، فإنهم كـانوا حـريصـين أن يعلمـوا أولادهم فى الكتـاّب وتلاوة القـرآن ,ومن يواصل منهـم كـان يرسـل إلى القاهرة لإكمال تعليمه..

حرص جدى لأبى على تعليم أبنائه – كما أكد لى أعمامى ـ كان كبيرا، رغم أن حاجته إلى أولاده كانت كبير أيضا. فهو يخسر بهذا مساعدتهم له فى أرضه الزراعية..

لكنه فـيمـاييدو – فضـلا عن حرصـه على تعليم أبنائه – كان قادرا إلى الدرجة التى كان يدفع بها أولاده للتـعليم فى الكتاتيب حولنا متحملا نصيبا كبيرا من اكتفاء أحد أولاده من التعليم بالابتدائية بعد الكتاب، وقد هرب والدى وشقيق آخر له من التعليم بعد الكتّاب مباشرة..

غيـر أننى أحسست ، حين شببت عن الطوق قليـلا ,وكان

جدى لأبى قد رحل، كيف تناثرت الأرض إلى شظايا ليست كبيرة بين أولاده (ثلاثة أبناء وبنتان) ثم زادت حالة الوراثة المحدودة بعد رحيل الجد ,ومن ثم ,تدهورت الحياة إلى حد بعيد ,وهو مادفع أولاده الثلاثة للرحيل إلى القاهرة..

لم يكن ليستطيع هؤلاء الابناء ان يعملوا فى ارض محدودة بعد تقسيم الميراث ,فضلا عن ضيقهم بالعمل الزراعى الذين لم يعملوا به ,فقد كان الأب منذ البداية حريصا على تعليم أولاده ,ومن ثم ,لم يشركهم – ككل أبناء الفلاحين – فى مساعدته فى زراعة الأرض، خاصة أن كانت فى حوزته عدد كبير من الحدائق التى كان يملك بعضها ويؤجر بعضها الآخر ,بل يقوم بدور المشرف على بعض حدائق الآخرين فى نفس الوقت لخبرته الواعية.. كما أن كثافة السكان كانت عاملا آخر يسهم مع غيره فى فرار الأبناء وتظل الفتاتان هناك حيث تزوجتا وعاشا .

لم يتفرغ الجد للعمل السياسى ,فقدكان همه توسيع أرضه الزراعية ,وامتلاك عدد من الحدائق ,ومحاولة توفير وسائل العيش الزاهر لأولاده ,ومن ثم ,لم يكن ليفعل شيئا حين اكتشف بحزن أن أيا من أولاده لم يستطع أن يصبح أحد (الأفندية), أو من يكمل تعليمه ليضيف إلى الأب وجاهة

تجعله يعمل فى شكل من أشكال مجالس المديريات التى كانت تمنح صاحبها وجاهة فضلا عن استثمارها فى العمل اليومى.

أتذكر أوراق دار المحفوظات ,وتحمل لي صورا بعيدة من أصداء أن الحياة فى قرى الدلتا كان أمراً مستحيلا للأبناء فرحلوا إلى القاهرة ,ولم يلبث أن رحل الأب أيضا ,فعمل الأبناء فى الأعمال الدنيا التى لم تمنحهم إلا القوت اليومى..

المعروف أن القادمين من الشمال - الدلتا - إلى القاهرة كانوا يهبطون فى أول منطقة فى الحاضرة ,ومن ثم ,ما إن أتى أبى وأعمامى إلى القاهرة حتى أستقروا فى هذه المنطقة التى تعرف (الساحل) قرب روض الفرج بالقاهرة ,حيث كانت تتركز أكبر جماعة نازحة من الوجه البحرى (تلى منطقة الساحل فى النسبة الكبيرة من المهاجرين مناطق أخرى فى القاهرة أهمها منطقتا: الجمالية والدرب الأحمر وباب الشعرية)..

وإذا كان أبى بين أعداد كبيرة من عائلته استقر فى منطقة شبرا المجاورة للساحل ,فإن جدى لأمى كان استقر - بعد نزوحه أيضا من الشمال فى منطقة باب الشعرية حيث اكتفى بعمله موظفا فى المحاكم المختلطة ,وكانت المسحة الدينية تغلب عليه..

وهذا الجد ـ بوجه خاص ـ هو الذى اثر فىَّ فى فترة مبكرة ،حيث ذهبت معه إلى أغلب مساجد مصر(كل جمعة)، كما أن مجلات الأزهر وبعض الكتب الدينية التى كانت تملأ أكبر غرفة فى المسكن الذى قصده، هى المادة الأولى التى قربتنى من الحس الدينى والقراءة المنتظمة

ومع أن أحد أعمامى كان قد حصل على مؤهل وأصبح مهندسا زراعيا ،فلم تكن العلاقة الأسرية معه متصلة قط، وظلت حالة الأخ الثانى ـ أبى ـ متواضعة ،يعمل الاب فى شقاء طيلة اليوم فى أحد المضارب ،وتقيم الأم فى البيت مثل أمهات ذلك الزمان فى الأربعينات والخمسينيات..

وعلى هذا النحو ،نشأت فى بيئة فقيرة، لم يكن ليخرجنى منها الا ساعة او بعض ساعة كل عدة أيام حين انتقل من أحد الأحياء الفقيرة فى شبرا التى كنت أعيش فيها لأذهب إلى أحد الأحياء الشعبية – باب الشعرية – حيث ولدت – وبين كل من حى شبرا وحى باب الشعرية كنت أمر على حى من أرقى الأحياء فى هذا الوقت، وهو، حى الظاهر – وهنا تعرفت على وجه آخر للقاهرة.

وعلى هذا النحو، بدت نشأتى الأولى مزيجا من الفرار الدائم والمستمر فى هذه الفترة بين الأحياء الشعبية التى

كانت تزخر بالموالد والحس الديني، فضلا عن تجوالي المستمر - وأنا لم أبلغ الرابعة عشرة من عمري بعد - في المناطق الراقية كالظاهر وضواحيه الأكثر قربا منه في تأكيد الظواهر المدنية الغربية.

هذه الفترة المبكرة من حياتي هي التي أسهمت الإسهامات الأولى في التكوين..

كانت جملة من العناصر هي التي أسهمت في هذا التكوين ،وهي عناصر دفعت إليها بفضل الجغرافيا التي كنت أعيش فيها والفراغ الذهني وفترات التفتح الأولى ثم الوحدة التي كنت أعانيها رغم العدد الهائل من الأقارب والصحاب..

غير أن أكثر العناصر تأثيراً لدى - إلى جانب ما أشرت - كانت القراءة والمناخ الشعبي الإسلامي للمناطق القديمة والحس الديني الذي كان يتبدى في رجالات الأسرة الكبار خاصة، ثم هذه الوحدة التي أشرت إليها مما شكلت الوعي الفطري بشيء أكثر خصوصية من غيري ،كما أن فترة الخمسينات والستينات وتجليات الثورة وأحداثها داخل المدرسة وخارجها أثر فيّ كثيرا.



تفتحت عينا الصغير على هذا المناخ بالقاهرة.. كان قد تعرف على القراءة وهو يتجول بشكل مستمر على سوق الأزبكية حين كان عامرا فى الخمسينات من القرن العشرين, وكان قد تعرف على أغلب المناطق الشعبية فى هذه المنطقة التى تبدأ من باب الشعرية وباب البحر صعودا إلى الجمالية والغورية والحسينية ,فقد كان له الكثير من الأقارب هناك ,مما جعله يتعرف منذ فترة مبكرة على الآثار الاسلامية ,ويذكر وهو طفل صغير ,حين كان يعبر (بوابة باب النصر) كيف كان يلفت نظره بعنف هذه الأدوات البدائية التى كانت توضع ويضع عليها الشموع التى لم تكن لتنطفىء قط. بل كانت أبواب القاهرة وعيونها وجبالها (إلى قبل المقطم) هى الميدان الذى طالما اجتاحه وحيدا فى تلك السن المبكرة..كان يبدو طفلا ساكنا هادئا من الخارج ,لا ينم لعارفيه عن سمة معينة من اللهو العنيف أو أفعال الأطفال المبررة ,وإنما بدا طفلا عاديا.

غير أن هذا الطفل العادى ,على الأقل فى هيئته الخارجية, كانت تستعر فى دخيلته – دائما – براكين لا يعرف سببا لها, هل هى الازدواجية أم هو التكوين الخاص .

غير الصبى – امتدادا لهذه الحياة – كان يعيش فى

(حالة) ذاتية جدا إذ كان فى فترات السكون الكبيرة التى يعيش فيها والتى تعقبها تيارات عاصفة. بين هذه الحالة وتلك كان يحس الصبى بشىء مخيف داخل وجدانه يهمس فيه.. شىء مخيف يدير الحوار بينه وبينه لساعات طويلة..

كان يعيش هذه (الحالة) الغريبة التى كان يصمت فيها طويلا فى جيئة، أو ذهابه وهو لايعرف سر هذا الاضطراب، ومن هو هذا الصوت الذى يحدثه دائما ، وما هى هذه الأصوات التى تتحداه فيتحداها وما سر هذه الأشباح التى لا تتوقف فى دخيلته عن نهره والغضب منها.

كان حوارا مستمرا فى فترة مبكرة بينه وبين قوى لا يعرف عنها شيئا، إنما كانت تكسبه – إذا امتدت فترة الحوار والجدال – نوعا من الخوف أو الرهبة والرعب والوحدة.. حالة لايستطيع تفسيرها حتى كتابة هذه السطور.. حالة أشبه بعالم الأساطير القديمة الذى يعج بالأشباح، والعوالم النائية والغمام الغامض، أعلم أننى طالعت عددا هائلا من الكتب خاصة الأساطير اليونانية القديمة غير أن ما أصبت به أو أحسست به كان أشبه (بالانفصام) الذهنى الحاد كما تحاول خبرات علم النفس المعاصر أن تفسره.. لا أعلم كيف، تلاشت هذه الحالة أو اختفت لكننى أتذكر أن هذه الفترة التى

كنت أقترب فيها من عالم القراءة اقترابا تاما، في السنة الثانية الاعدادية على وجه التقريب ،حيث بدوت لنفسى الآن كأننى فى هذه الفترة أشبه (بدودة) تشيكوف التى دخلت مكتبة المدرسة فأتت عليها ،ولم تلبث أن أكتشفت أن هناك حجرة ضخمة يمكن الدخول اليها من المكتبة.. فيها كل ما ألقى من هذه المكتبة من كتب ودوريات وصور (العهد البائد) ـ قبل الثورة كما قرأنا فى ذلك الوقت.. فلم أتردد فى الدخول إليها، وتركنى أمين المكتبة لأنه لاحظ شغفي الشديد بالكتب، والتهامى لهذه المكتبة الضخمة.. فظللت بها أياما أتعرف على عالم لم أكن لأتعرف عليه لو ظللت خارج هذا المكان..

كان العام الدراسى١٩٦١/١٩٦٢ هو العالم الذى أتيت فيه على هذه المكتبة ،وتلك الحجرة ،ثم تسللت منها إلى مكتبة تابعة لدار الكتب (فرع خلوصى) ،وتسللت منها بعد أن أتيت عليها إلى الشوارع الجانبية حيث كان هناك بائع للكتب يقف يوميا بكتبه القديمة الهائلة على سور مدرسة الراهبات ،فكنت أحصل منه على ما أستطيع ،وادفع له ما أقدر عليه ،بل كنت أجلس لديه لقراءة أكبر عدد من الكتب بالمبلغ الذى كنت أدفعه إليه لو أخذت كتابا واحدا ،وكان الرجل يتركنى حتى يأتى الليل ،وتصعب على القراءة ،فأذهب، هذه هى الفترة التى

تعرفت فيها على عالم الشاشة البيضاء أقصد عالم السينما، كانت هذه الشاشة البيضاء الهائلة التى تعرض الأفلام الأمريكية فى الستينات وأيضا بعض الأفلام الإيطالية هى التى سيطرت على حركتى فى هذا الوقت ,فقد ظللت لسنوات (١٩٥٩/١٩٦٤) مدمنا لمثل هذا الإبهار الذى يقدمة التكنيك المبهر للسينما الأمريكية خاصة وهذا الخيال المغرى الرهيب..

كان الفتى فيما يبدو يلقى بنفسه فى هذا اليم هروبا من واقع اجتماعى لم يستطع أن يجعله يرضى به.. كان الأب عنيفا ,والأم عصبية، لكنها مستكينة أمام عنف الأب ,وزملاء المدرسة الاعدادية - فى أغلبهم - من الأثرياء. تعرفت فى زياراتى لبعضهم على نوع من الحياة لم أكن لأعرفه لو لم أذهب لعدة أشهر إلى علاء (لنذاكر معا)، كانت الشاشة البيضاء المبهرة تعكس قيما لم أكد أجدها فى الواقع ,فهربت إليها.

وكان تأثير السينما على قد وصل إلى الدرجة التى كنت أستيقظ فيها صباحا من بيت جدتى فى شارع الجيش لأذهب الى سينما (هوليود) التى تخصصت فى مثل هذه الأفلام الأمريكية المبهرة ,وحتى لا يمنعنى أحد ,كنت أحرص على أن أمضى فى سكون ,وبدون إفطار.. فإذا بى أمام السينما

المغلقة، أنتظر فى الطابور المنتظر حتى تفتح الأبواب ,وتنار الأضواء على الشاشة ,فأستكين فى الظلام يحيطنى مناخ خانق ومشاهدون من حثالة المجتمع ,وكثيرا ما كنت أجلس بجانب أحد الرجال المكفهرين الغاضبين حتى إذا ما بدأ عرض الفيلم، أكتشف أنه يصيح بى أن أقرأ له الترجمة, وينهرنى من آن لآخر حين لايفهم الترجمة فيطلب منى - وأنا لم أتعد الرابعة عشر من عمرى - أن (أحكي) له ماذا يفعل (البطل) أو (الشجيع)..

كنت لا أتردد فى كل مرة لأرى أفلاما أجنبية قد تصل الى ثلاثة أفلام فى اليوم الواحد مهما تكن الظروف السيئة التى أتعرض لها سواء من المشاهدين أو مما سأجده من نهر وغضب شديدين من أقاربى..

هذه هى الفترة التى كنت أتعرف فيها على مايقدمه عصر عبدالناصر من خطب وبيانات وصحف وحماس قومى عارم, وهو قد أثر فى تكوينى إلى حد بعيد ,فقد كنا حين نذهب الى طابور الصباح نهتف (ناصر..ياحبيب الكل ياناصر) وحين نصعد إلى الفصول نقرأ الكتب التى وضعتها الثورة، وحين أعود إلى البيت كان صوت عبدالناصر والجماهير يأتينى من كل اتجاه إلا بيتنا.. فلم نكن لنملك مذياعا فى بيت أبى..

وأغانى الثورة وأناشيدها .. وحين أذهب إلى السينما متشوقا لهذا الفيلم الامريكى الماكر كان يعرض علينا أولا وقبل كل شيء بعض مواقف عبدالناصر وإنجازاته والأفلام التى وضعت خصيصا له.. ورغم تعجلنا للفيلم ,فلم نكن لنضيق بعبدالناصر وأصحابه..

وعود إلى عالم القراءة ,فقد كانت هذه الفترة هى الفترة التى تعرفت فيها على أشكال واجناس كثيرة من الكتب..

فقد عرفت الكتب الدينية والمجلات الدينية الكثيرة التى اقتربت منها أكثر فى بيت جدى لأمى كما أشرت.

وهى الفترة التى تعرفت فيها على(الف ليلة وليلة) وكنت أخفيها من الأم التى كانت (تفك) الخط ,لأغرق فيها مخدرا تماما حين ينام الجميع ,فقد كنت أحصل على الطبعة الاولى لألف ليلة فى طبعتها الاولى من عم (أحمد) من سور الراهبات..

وهى الفترة التى تعرفت فيها على كثير من الكتب الصفراء التى تنسب للدين، فقرأت فيها الكثير والكثير، وهى الفترة التى كنت أذهب فيها أيضا للمساجد فى الصلاة لأقلع عنها وأعود إليها ثانية، وهى الفترة التى قرأت فيها كثيرا من الكتب العلمية التى كانت تهتم بالجانب العقلى فلم تستطع

كثير من الكتب الصفراء أن تؤثر على بكثير من الخرافات التي كانت تبهرني أحيانا.

ثم هذه هي الفترة التي تعرفت فيها على كتابات غربية كثيرة.. فقد قرأت أغلب (إن لم يكن كل) الكتب المترجمة في كثير من السلاسل او المجلدات الضخمة.. وهي الفترة التي تعرفت فيها على روايات القرن التاسع عشر و(عقلانية) القرن الثامن عشر في الغرب ،ثم هي الفترة التي عشت فيها طويلا بين كثير من المجلات الغربية التي كانت تتوالى علينا, فأضيف الى التراث الغث حينا والمستنير أحيانا زادا معرفيا غربيا سوف يسهم كثيرا في تكويني فيمابعد..

وهذه هي الفترة التي قدر لي فيها أن أتعرف على طه حسين والحكيم وأحمد أمين وغيرهم على صغر السن...

ثم كانت هذه هي الفترة التي انتقلت فيها من أشكال كثيرة من القراءة الى ألوان كثيرة مما تقدمه الشاشة البيضاء من أفلام أمريكية مبهرةالى هيام عاطفي مستكين كان يقبع في دخيلتي دائما ولا أعرف له سببا واضحا.. إلى ولع بأنماط كثيرة من التلقي والاكتشاف المبكر، من ذلك ،لعبة الشطرنج، فإن أنس لا أنسى ولعي الشديد الذي كان يدفع بي من آن لآخر لأجلس إلى أحد الأصدقاء أو أحد اللاعبين غير

المعروفين لألعب معه الشطرنج ,بل وصل الأمر أننى كنت أشترى الكثير من كتب الشطرنج فأغرق فى الخطط التى تقدمها (قراءة) ثم أغرق فى تطبيق هذه الخطط (لعبا) مع نفسى ,فى حين كنت لا أتوقف عن كتابة الأدوار الذكية المشهورة برموز كانت تمنحنى إياها كتب الشطرنج فى هذا الوقت..

بل بلغ شغفى بهذه اللعبة – ولما أصل بعد إلى سن الرابعة عشرة ـ أن كنت أذهب الى قهوة معروفة قرب (شوكولانى) – حى بشارع الترعة البولاقية ـ ,فأجلس فى هذه القهوة التى كانت تعرف بقهوة الشيوخ الكبار (على المعاش) فأجلس أحدق طويلا فى لعبه ومن ثم لا أتردد بعد عدة أيام أن أهبط إلى الميدان أمام البعض منهم حين يتعب اللاعب الآخر معه..

كان هذا كله يحدث ولما أنته من مرحلة الإعدادية.. حتى إذا انتهت مرحلة الاعدادية ,وتقدمت بأوراقى إلى مدرسة التوفيقية رغم اعتراض أمى الصريح ,ورفض أبى الصامت.. وحتى إذا قبلت بمدرسة التوفيقية الثانوية صرت أواجه رفضا من العائلة..

كانت الحياة التى أعيشها حياة بسيطة أو كانت الطبقة

التى انتمى اليها لا تسمح بتوجهى الى مدرسة ليتواصل الانفاق على.. ولم يكن أمامى غير الذهاب إلى معهد فنى رقيق الحال ،مجانيا ،وربما منح لى بعض النقود.. فوجدت نفسى ،فجأة ،أخسر كل شىء.. بدأت – فجأة – مرحلة الكابوس لقد تبخرت (كل) الأحلام الرومانسية والمثالية فتحولت – الأحلام – إلى كابوس أسود مروع.. كل أحلامى التى كان تصوغ التكوين وكل أفكارى التى نمت من ممارسات عدة فى سن مبكرة ،وتوجهات متواضعة ،وظروف ألبستنى ثوب التطلع إلى الأمام الطموح الذى اكتشفته فى كيانى أخذ يدمى قلبى.

كيف خرجت من ثوب كل هذه الأحلام إلى معهد أصبح فيه من الكوادر الفنية..

بعد حصولى على المرحلة الاعدادية فى بداية الستينات وجدت نفسى فى العراء لاشىء يعصمنى من الغرق لا شىء ينقذنى من السقوط من أعلى التل.

كانت هذه هى الفترة التى ارتفع فيها عدد الطلاب فى مراحل التعليم بتوجهات الثورة والتعليم المجانى.. قد وصلت الى نسبة٠ ٣٠ فى المائة ،غير أن ذلك التعليم المجانى والحث عليه ضمن شعارات الثورة لم تمكنى حالتى الاجتماعية الرقيقة من التواصل معه..

توقف التعليم عند المرحلة الاعدادية.. وتركت فى عراء الحياة ,وجدت نفسى أعمل فى كثير من الأعمال العامة: أنتهى بى الأمر لأعمل عاملا فى إحدى المطابع.. وغرقت فى كثير من المشكلات مع عمال المطابع..

ولنا أن نتصور هذا الفتى النحيل الرومانسى يقف مهزوما محطما أمام (ماكينة طباعة) لابد أن يعمل عليها.. هل احترقت احلامى.. هل تحطمت هل أسعى لأستعيد دورة التعليم المجانى فى المدرسة الثانوية لكن كيف؟.. ومن يتول ذلك معى ومن يرحمنى من هذه الضجة التى تحيط بى لعشر ساعات كل يوم والزيت والأحبار والورق والتروس والظلام والحزن والقلق والضياع والليل الطويل أمام هذه الآلات الجهنمية الصاخبة..

من يرى هذا الفتى الصامت الحزين السجين فى قبضة ليل لا ينجلى..

ليل طال بين أحلام تداس تحت أقدام الواقع العنيف فقد أصبح الفتى بعد حصوله على الإعدادية وبعد أن ملأ الدنيا أحلاما وأمانى ينتحب الآن بين هذه الآلات الصماء التى أصبح يعمل فيها (بدبلوم) صنايع بين عمال لايعرفون إلا ماوفر لهم المجتمع من جلافة وعنف وأشقاء لايعرفون إلا ماتركه الفقر على وجوههم من بصمات غائرة.

هل هبطت فجأة من (يوتوبيا) الأحلام إلى قاع البركان في هذه السنوات التي استمرت في الستينات؟.. كنت أعمل في أي شيء وتحت أي ظروف وفي الوقت نفسه أعمل في صمت لأعاود الدرس في(المنزل) لأتقدم آخر العام لامتحان إحدى السنوات الثانوية، أو أذهب – فيما تبقى لي من وقت وأنا ضائع حزين وحيد – إلى مدرسة ليلية (راغب مرجان) مرة ومدرسة (الليسية) مرة أخرى لأكمل (الثانوية العامة) وأنا أحاول أن أختلس من وقتي القليل، ومن بسمتي الكثير الكثير..



سنوات غائبة

أطياف الرومانسية

إرهاصات من الابداع من المفكرة

فى هذه الفترة كنت أكتب فى (مفكرة يومية) ما يحدث لى يوما بيوم ،وفى مفكرة حملت عام (١٩٦٥) كانت صفحاتها كلهامكتوبة يوما بيوم ،وهى عادة عملت بها منذ وجدت جدى لأمى يملأ أركان حجرته بمثل هذه المفكرات وإن كان يسجل بها أهم أحداث العائلة من ميلاد ووفاة ومصروفات ، الفارق أننى كنت أكتب يوما بيوم كل مايعبر بى.. فى هذه المفكرة، وذلك العام الكثير الكثير من هذه الفترة ،وهنا اختار بعض الأيام لأنقلها كما هى - بالحرف - لأترك هنا أثرا من تاريخ هذه الفترة، هذا العام ١٩٦٥ أقرأ و أنقل منها بالحرف:

الجمعة ١ يناير ٢٨ شعبان ٢٣ كيهك

حدثت لى فى هذا اليوم تيارات جديدة فى تفكيرى هربت إلى السينما فى الصباح لأنسى همومى فى البيت. عدت فى المساء واجما.. حين نام الجميع جلست الى ديوان (أبو تمام) أخذت أقرأ وأعيد تفعيلات البحر: أى مرعى عين ووادى نسيب/........

السبت ٢ يناير

سألت فى المنطقة الشمالية(شئون الطلبة) عن اجراءات الامتحان..ذهبت الى مدرسة (راغب مرجان) فى المساء.. لم أوفق ذهبت الى مدرسة(الليسيه فرانسيه) تقدمت بأوراقى..

السبت ٩ يناير

حين ذهبت الى المركز اليوم للاختبار النظرى ,كانت ملابسى رثة ,قديمة ,كان حذائى بال ,وقديم.. بكيت كثيرا وأنا عائد الساعة الرابعة.

الخميس ٢٨ يناير ٢٥ رمضان ٢٠ طوبة

خرجت من البيت ضجرا جدا حزينا جدا لعدم وجود نقود للافطار وللخروج بها الى العمل خرجت الى العمل سيرا على الأقدام ,مسافة طويلة جدا.. عدت خائرا حزينا ساكنا.. اى قهر

الجمعة ٥ فبراير

لقد كان ليلا طويلا لم أنم فيه لحظة.. رأيت ,وأنا راقد على كنبة صغيرة بجانب الشرفة النهار، ظللت أراقب النهار حتى انتصرت جيوشه على جيوش الليل.. قمت تعب مجروح الحس.. أغلب ليالى هكذا ,لا أنام الليل ,لايأتينى النوم ,لا يعرفنى أستيقظ تعبا نفسيا وجسديا.. أين أذهب.. انه الجمعة.. أى حزن يسيطر على كيانى كله..

الاحد ٧ فبراير

ها أنا أعود الى العمل بعد أجازة ولكن مهموم الخاطر.. لم أحدد مصيرى بعد ,مازلت متعثرا فى تعليمى بسبب المصروفات التى لا أستطيع التقدم بها الى امتحان آخر العام.. ذهبت إلى المكتبة، أرجعت كتاب (أبى تمام) أخذت بدلا منه ديوان (أبى العلاء المعرى) أحسست بما يسمى (القلق النفسى) يسيطر على كل كيانى.

الثلاثاء ١٦ فبراير

أول يوم بعد الأيام السابقة أحس فيه بالراحة النفسية قليلا حين شعرت بإصرارى على تغيير حياتى بأى ثمن أحسست بالراحة لمجرد إصرارى.. لقد رأيت فى الأيام السابقة قدرا كبيرا من المرارة والعذاب حينما كنت أفكر فى كل الصعاب التى تحيط بى ، والتى انتزعتنى بعد الإعدادية من أحلامى إلى قهرى وبؤسى.. انتهيت من قراءة كتاب (غزو الكواكب) .. ها أنا أحمل كتاب لفولتير لأعيده للمكتبه..

الجمعة ١٤ مايو

فكرت أن أذاكر اليوم كله ,ظللت أمام الكتب الدراسية وقتا طويلا أحاول الحفظ والاستيعاب لا القراءة فقط ,أحاول التهامها.. فى المساء لم أستطع أن أقاوم هذا الفيلم ,ذهبت إلى فيلم (هاملت) لشكسبير..

الأحد ٢٧ يونيو

نظمت قصيدة جميلة ,موزونة.. أرسلت بها إلى الأستاذ عبد القادر القط في مجلة (الشعر) استلمت اليوم خطاباً ردا على خطاب سابق لى من الرئيس جمال عبدالناصر أى إحساس السعادة أن يكتب عبدالناصر ردا على مرسلا صورته أيضا.

الاثنين ٦ سبتمبر

حاولت اليوم ألا أذهب لهذا العمل المضنى السقيم جلست إلى ديوان (الأعشى) المجلد ضخم ,كنت أستعرته من مكتبة دار الكتب..وجدت صعوبة كبيرة فى فهم القصائد بذلت مجهودا ضخما للحفظ ,حاولت أن أكتب القصائد لأعمق أثر الشعر فى، فى المساء جلست إلى كتب اللغة البرازيلية التى كنت قد جئت بها ,وواصلت القراءة والفهم إننى منذ فترة طويلة اجهد فى تعليم البرازيلية أعتقد إننى حصلت على قدر كبير من الفائدة!!.

الثلاثاء ٧ سبتمبر

تتحسن مداركى كثيرا كثيرا فى تعلم البرازيلية خرجت لأرى فيلم (سرب الانتحار) الأمريكى.. أعجبت جدا بهذا الفيلم التى يعد قمة الأفلام الهادفة الآن.. عدت إلى البيت لأطالع رواية لفيكتور هوجو. أى عالم هذا..

الخميس ٤ نوفمبر

أغنيـة السـد العـالى التى سـمـعـتـهـا منذ قليل تؤلب فى أشجان كثيرة إنها ترتبط عندى بذكريات عزيزة جدا جمعت قصاصات كثيرة كنت كتبتها فى هذا اليوم بها الكثير من الملاحظات على روايات شكسبير وسنيكا.. سأخرج الآن، الآن الساعة الحادية عشر مساء ،لابد من التحرر ،الخروج..

●●●

لا تنتهى اليوميات لكنها تستمربخط ردىء وحزن قاتم.

وتتـوالى المفكرات قـبلهـا وبعـدها آثرت هنا أن أسـجل بعضها لأودع هذه الصفحات عينات مما كنت أكتبه فى هذا العام..

هذه هى الفترة التى جهدت فيها للتقدم فى التعليم الثانوى وكان تحـصيلى فى كل سنة من السنوات الثلاث يتم قـبل أن أصبح جنديا فى المقاهى ،أغلب مقاهى القاهرة جلست فيها لأطالع الدروس بجانب (القهوة) السـوداء ،وبعد أن أصبحت فى الجندية لم أكن قدحصلت بعد على الثانوية العامـة ،فكنت انتـهـز فـرصـة (الخـدمـة) فى أى مـوقع عسكرى بالصـحـراء لأحمل معى كتابا أقرؤه ،كنت أدرس فى الظلام ،وخلفى ذئاب الصـحـراء التى تهـددنى وأنا أحـمـل السـلاح ،وأمـامى البدو

الذين حذرونى منهم خوفا على السلاح ,وبجانبى هذه الأبيار (جمع بئر) التى كان الانجليز يحفرونها فى الصحراء المصرية فترة الحرب العالمية الثانية بجانب ثكناتهم..

فى هذه الفترة الصعبة من حياتى وجدت نفسى .,مجندا فى جيش عبد الناصر، ووجدت نفسى أحمل (النكسة) الشخصية التى عبرت بى ولم تتركنى إلى (النكسة العسكرية) التى عبرت بالوطن وقيادته..

كانت النكسة الخاصة تقبض على عقلى وكانت النكسة العامة تقبض على قلبى، ورحت أناجى نفسى ,فى صمت, وفى صمت حزين أن هذه النكسة الخاصة هى التى هيمنت على وجدان الوطن..

راح الفتى الصامت الحزين إلى درجة سوداوية ,يربط بين (ماساته) الخاصة و(مأساة) الوطن.. كلنا مأسورون فى قبضة العدم.. أنا والوطن..

لقد تحول كل شيء الى كابوس.. تبخرت الأحلام وجاء الكابوس، كابوس يرتدي غلافاً رمزيا من الرومانسية الغامضة القاتمة وهو ما يدفع بى الى التمهل عند تجليات هذه الرومانسية الغامضة القاتمة على أكثر من مستوى ..

..

(٢)
من سفر الخروج

تجليات الرومانسية
(المستوى الرأسى)

ربما تعود هذه الرومانسية كما أراها الآن الى تكوينى الذاتى أولا ثم إلى تكوينى الفكرى بعد ذلك، ففى هذه الفترة التى يمكن أن نجاوز بها منتصف الستينات الى نهاية السيتنيات صعودا الى العقود التالية كان الهاجس الشخصى الحزين يعود الى المناخ الاجتماعى الذى وجدت فيه لكنه كان يعود أيضا الى المناخ الجغرافى الذى تواجدت فيه وربما يعود الحس الرومانسى الذى ارتبط بالمرأة هنا الى ماحاولت التعبير عنه حينئذ والتعبير عنه كتابة، خاصة حين يرتبط بقراءاتى الكثيرة التى استطاعت ان تأتى على أغلب إن لم يكن كل الكتابات الرومانسية سواء الكتاب من جيل كتاب العصر الحديث فى المنطقة العربية او جيل الفلاسفة او الادباء الغربيين خاصة والفرنسيين على وجه أخص فى الغرب ..

إنه الخط الرأسى الذى عانيت به كثيرا نهايات الستينات إلى بدايات السبعينات صعودا بعد ١٩٧٣ - كما سنرى - إلى نهاية السبعينات..

لقد كانت الكتابات التى أتيت عليها بالفرنسية أو بالعربية من أطياف الرومانسية أكثر ما تعبر عن هذا الهم الرومانسى الذى عثرت عليه فى تضاعيف مواقفى وحزنى الدفين، وكتاباتى على هوامش الكتب، وفى عديد من الكراسات والأوراق التى عثرت على بقاياها الآن فقد عنيت كثيرا بالكتابة عن الهاجس الشخصى او المؤثر العام على تكوينى الفكرى، غير أن العديد منها غاب تحت رماد السنين أو وراء غبار التنقل فى أكثر من مكان سكنى ..غير أن ماتبقى لدى حتى الآن تحليل هذه الفترة ، فرومانسيو هذا الزمان كان يقودهم " التوجه العاطفى إلى النظرة إلى الحب على أنه عاطفة ملهمة وفضيلة كبرى. وقد ارتفعوا بالحب إلى درجة التقديس والعبادة وارتفعوا به عن النزوات والدوافع الحسية"، ورومانسيو هذا الزمان الذى تأثرت به كانوا أبناء نهايات القرن الثامن عشر فى أوروبا بحكم الإنكباب على كتاباتهم، ثم كانوا أبناء الحضارة العربية الإسلامية فى داخل البلاد حيث عرفت الكثير من رومانسيات الأدب العربى التراثى أو الشعبى منه، ثم فى كثير من كتابات القرنين التاسع عشر والعشرين حيث عرف كاتب هذه السطور الكثير منهم خاصة فى القرن العشرين، حيث كان المنفلوطى وكثير من الكتاب

الشوام، وان بدا أن المنفلوطى كان يمثل أبرز هؤلاء فى بدايات القرن العشرين، ثم عدد كبير من كتابنا العرب فى نهاية هذا القرن ..

وهو ما حدد بدرجة كبيرة موقفى الرومانسى من الواقع حولى، ومن المرأة وتجاعيد الطموح القلق المقلق وأنا فى هذه السن المبكرة فى نهاية الستينات إلى ما بعد ذلك ..

بدا هذا فى مذكراتى التى كنت أكتبها بشكل شبه متواصل ، وفى أشعارى الأولى التى طرزت بها أغلب أوراقى فى الستينات والسبعينات، ثم فى المذكرات التى اخترت ان تكون بتاريخ وساعة معينة لأسجل بالضبط أعمق ما كان يدور فى فكرى ومواقفى الواعية حينئذ..

والعود الى كتاباتى التسعينية للاحتفاظ بها أو ما تبقى منها سنجد اننا منذ نهايات الستينات خاصة مع هزيمة الوطن فى عام ١٩٦٧ ، فأذكر أننى وسط عواصف الحزن الذاتية وعواصف الوطن الجمعية كنت اربط كثيرا بين الذات والوطن ، فكلاهما عاشا فترة المحنة المفزعة ومن ثم ربطت لاشعوريا بين مأساة الوطن ١٩٦٧ ، ومأساة الذات، وظلت دوائر المحنة الذاتية الوطنية الحادة تلتف حولى وتتماهى معا بين عامى ١٩٦٧ و١٩٧٣ .

وكما عانى الوطن عانيت أنا نفس المشاعر الذاتية، مضافا إليها المشاعر الوطنية، وارتبطت إرادة الخروج من المحنة الذاتية بإرادة الخروج من المحنة الوطنية معا، وخيل لى الواقع فى هذا الوقت أن دأبى الشديد (الذى لم يفتقد الحزن الكابى) هو دأب الوطن الشديد (وإن لم يفتقد الحزن الكابى) للخروج من هذه الهزيمة بعد منتصف الستينات بقليل، ومن هنا أرتبطت إرادتى ـ الارتباط بالدرس والتحصيل الطبيعى، إذ كنت فى هذه الفترة نهاية الستينات – بإرادة الوطن وقد كنت فى الوقت نفسه مجندا جنديا فى أحد المواقع المترامية فى أنحاء مصر الشرقية

هذه هى الفترة التى تجمع لدى فيض من المشاعر التى كانت نتيجة للواقع والعبور عليه فى خيوط كثيرة يمكن أن أرصد منها الآتى :

- الفقر الاجتماعى الشديد..
- الاضطراب الشديد الذاتى السياسى.
- الاضطراب الشديد الاجتماعى – السياسى.
- التهاويم فى المناطق الشعبية والشعرية.
- الارتباط القسرى بالمرأة ، تهويمات الحب المستحيل.

– التعبير عن هذا كله بكتابات إبداعية بدت – فى أغلبها – تعبيرا بكرا.

هذه عديد من الخيوط الذى نسعى الآن إلى التعرف عليها بشكل غير منظم فى الشكل العام، لكنها فى السياق الأخير تصل بنا إلى أهم ملامح الرومانسية المبكرة: الحزن القاتم والطموح الجارف والواقع الاجتماعى المضطرب العنيف والهزيمة العسكرية الدامية التى دفعت بى اكثر لاقع فى الصحراء، أمام عدو لم نستعد له بقدر كاف، فإذا بى أحاول ان أتماسك فلا أجد أمامى غير هذه الخيوط إلى الرومانسية..

بيد أن الرومانسية هنا كانت بالتأكيد إحدى دلالات رد الفعل الايجابى لا سقوطا فى بئر الحزن والضياع ..

صحيح أن الحزن وأطياف الضياع حلقت حولى كثيرا غير أننى لم أفتقد قط وسط ويلات الحزن الميلودرامى العنيف هذه الإرادة التى سعت لتجاوز المحنة سواء على المستوى الذاتى أو الجمعى ..

فى هذه الفترة قرب منتصف السبعينات وأنا أستعيد سنوات بعيدة سقطت كما أكرر متعمدا فى براثن الفقر والإحباط لكننى لم أسقط قط فى بئر الضياع والغياب ..

فسعيت الى مواصلة الدراسة .. كان أبى صادقا معى أشد الصدق فبعد حصولى على الشهادة الاعداية أبلغنى على لسان أمى أنه لايستطيع أن يفعل أكثر من ذلك " حصلت على الاعدادية هذا يكفى أعمل كما تريد .." فسعيت إلى محاولة العمل ولم يكن عمرى قد وصل إلى الخامسة عشرة عملت فى أكثر من عمل وأنا أنتمى إلى معهد متوسط معهد طباعة القاهرة كان تابعا لوزارة الصناعة ولما لم أستطع أكثر من مرة أن أتقدم لامتحان السنة الأولى الثانوية - بعد جهد دراسى عنيف بسبب أنى لم أملك مصروفات التقديم كان على أن أتقبل كثافة طبقات الحزن والإرادة أكثر بأن أحاول أكثر من مرة وأنا أعمل (بمطابع الأهرام) أن أتقدم لأكمل دراستى الذى فشلت اكثر من مرة للوصول إلى السنة الثانية الثانوى لإفتقاد مبلغ استمارة التقديم فما كنت أحصل عليه من مبالغ زهيدة حتى بعد أن أكملت هذه المرحلة من الدراسة كنت أدفعه راضيا لأسرتى الفقيرة ..

وهدانى الله سبحانه وتعالى أن أتقدم إلى مدرسة الليسيه فى الدراسة الليلية لتذكرنى دائما اننى يجب أن أتقدم بشكل عملى آخر العام لاجتياز المراحل الثانوية ..

هذه هى الفترة الرومانسية القاتمة التى عشتها ..

هذه هى الفـتـرة التى تماست مع البـحث عن الذات ..ففى نهاية الستينات وجدتنى دؤوبا فى البحث عن الذات ..الحصول على شهادة ..

وعن مصر التى كانت تتألم كثيرا تحت وطأة الهزيمة بعد ٦٧، وقد كنت أحد جنودها الذى عانى من الاحساس المريع بهذه الهزيمة والانتقال بليل من آن لآخر لأكثر من منطقة عسكرية ارتباطا بخطة الانتشار التى كانت تتم بلمح البصر بعد إلقاء القنابل الالف رطل والقاء النيران لأمتار على فى معسكرى المستهدف دائما والعودة فى فترة القذف والذعر لاصطياد ما بقى من المصريين بسلاح "الفيكرز" بالطائرة الأمريكية الحديثة جدا ..

وعن الفتاة التى أردت الارتباط بها وقد بدا ارتباطا مستحيلا كبقية المستحيلات اذ كانت الفتاة فى هذا الوقت تنتمى الى المسيحية، وتكون الابنة الثانية لأسرة من أصل محافظ جدا شهد بارتياع غياب الابنة الأولى مع شاب مسلم ومن ثم بدا الارتباط بهذه الفتاة وأنا أنتمى لجيش نظامى .. هو اللقاء المستحيل يوماً بعد يوم .

هذا الارتباط العاطفى (المستحيل) هو الذى لاحظته فى

ارتباطى الرومانسى المستحيل ايضا فيما بعد ، كنت شغوفا بفتاة ليست من دينى أصبحت فيما بعد أسيرا لهذه الاستحالة حين اصبحت شغوفا بفتاة جاءت الىَّ من رحم (الليالى) فمن ألف ليلة عرفت" شهرزاد" هذا هو اسمها بالفعل حين حاولت السعى اليها من القاهرة هبوطا الى جنوب مصر خروجا الى الواحات الداخلة حيث كانت تتنقل مع الاب والاخ فى عمل يرتبط بهذا الرحيل، قبل أن أعود اليها الى جامعة الاسكندرية لانهى معها فى الواقع أحد فصول الدراما الشعرية .. وايضا العديد من الفتيات الأخريات أثناء ارتباطي بالجامعة جامعة عين شمس - كان العامل الرئيسى بعلاقاتي بهن هو الاستحالة.. استحالة الارتباط .. ومن ثم بدا عامل الاستحالة اهم عناصر الرومانسية ..التى كنت أعانى منها وسط هذه الوحدة والعصامية والحزن القانى الغامر ..

ثم بدت الوحدة المروعة فى الاحساس المكثف بكل هذه الخيوط تحيل الأشياء إلى واقع يومي، واقع مؤذ تزيده مأساة جملة العوامل التى كانت تعانى منها مصر على المستوى الجمعى، ويعانى منها أحد أبنائها على المستوى الذاتى خاصة اننى عرفت شيئا ما بدا عاديا لكنه راح يغذى من إحساسى الواقعى فقد تم تعيينى بجريدة الأهرام بمؤهل

متوسط لكن بمرتب أقل بكثير مما يمنح المؤهل المتوسط فى ذلك الوقت ولما تعبت فى المطالبه بحقى فى الحصول على مرتب التعيين لاحظت أننى أرسل خطابات كثيرة الى الرئيس جمال عبد الناصر فى ذلك الوقت ..

وأنا أكتب هذه السطور الآن أعجب من هذا الموقف الذى وجدتنى أسيراً له أن أكتب لرئيس الجمهورية شاكيا وأنا على عتبة العشرين من مايحيق بى من ظلم..

السيد الرئيس : جمال عبد الناصر

لأنهى الرسالة بهذه العبارة :

جندى مجند مصطفى عبد الغنى الوحدة ٤٢٧٦ ج ٤

هكذا عدت إلى أوراقى القديمة لأجد صور رسائلى إلى جمال عبد الناصر وأنا أشكو الغبن وان اربط بين الخاص والعام وأنا أطالب بحقى كما يقره المؤهل المتوسط .. والغريب أن رسائل كثيرة ذهبت إلى رئاسة الجمهورية لشكوى عن الهم العام ثم أفاجأ برد عنيف على مؤسستى لإنصافى من الرئيس نفسه وهو ما لفت انتباهى الشديد إلى النتيجة..

وقد يكون من المهم أن أستكمل تجليات الرومانسية هنا أن

أذكر أن قراءاتى الشخصية لم تتوقفُ فى شتى الميادين الأدبية والإبداعية والفكرية وحين أقلب أوراقى فى هذا الوقت أجد الكثير من ملاحظاتى التى كنت أكتبها فى أثناء وبعد كل قراءة، ومن ذاك يمكن أن أنقل من أوراقى القديمة هنا أننى كنت شغوفا جدا بكتابات ابن المعتز (خاصة كتاب: البديع) وقد نقلت منه الكثير مما يترجم مشاعرى الشخصية، كما أن قدامة بن جعفر كان يمثل عنوانا ظل فى يدى لعدة أشهر فى ذلك الوقت، كذلك أذكر أننى فى هذه الفترة قرأت الشوقيات والمسرحيات الشعرية لاحمد شوقى غير أن إعجابى بشاعر معاصر كان لحافظ إبراهيم أكثر من شوقى (لا أعرف السبب!) ثم ديوان ابن زيدون وقد كنت شديد الإعجاب به والمتنبى بعد ذلك .

وقد بلغ إعجابى بأبى الطيب فى هذا الوقت أننى رحت بناء على نصيحة أحد الأصدقاء الشعراء أحاول أن أتمكن من الأوزان الشعرية فألجأ إلى (التشطير) فى ديوان الشاعر المتنبى وابن الرومى وابن زيدون والبهاء زهير .. كما أن محمود حسن اسماعيل فى العصر الحديث تغلب علىَّ كثيرا وتعرفت على صلاح عبد الصبوروالسياب ونازك فى هذه الفترة للمرة الثانية وتمهلت عندهم كثيرا ..

وفى هذا كنت دؤوبا فى أثناء الفترة الاعدادية فقد تمكنت من قراءة العديد من هذه الدواوين الشعرية القديمة والحديثة من مكتبة دار الكتب (فرع معروف) الكائن بميدان خلوصى بشبرا، وقد شهدت شبرا بعد باب الشعرية وأحيائها القريبة من باب الفتوح وباب النصر والمغاربة ..إلخ فترة النمو الفكرى والإبداعى منذ فترة مبكرة فى التكوين الفكرى.. وأذكر أننى فى هذه السنوات كنت أضمن أوراقى وكراساتى القديمة كلمات دالة فى تكوينى من مثل (الشعراء يخلدون أنفسهم والمؤرخون يخلدون غيرهم) ..

وهذا الشغف بالشعر ارتبط ارتباطا حادا بهذه الموجة الرومانسية العالية العاتية التى كانت تتردد فى تكوينى مع توالى الأحداث وصعوبة الظروف الاجتماعية التى كنت أمر بها فقد كنت أنتمى لهذه الأحياء الشعبية فى المكان لكننى أنتمى للفئات الاجتماعية الفقيرة فى التكوين العام وتصادف أن تأرجح فى تكوين الفتى صعود الشعر الوجدانى الى درجة عالية وسدود التجارب الاجتماعية والعاطفية مما أورثنى هذا الوجدان الحزين دائما ..

ومع أننى كنت أقرأ وأحفظ الشعر فقد كان من الطبيعى أن أحاول أن أغزله أيضا وهو ما يفسر محاولاتى الشعرية

الكثيرة التى احترق الكثير منها واختفى بفعل الهزائم الاجتماعية التى مررت بها وبفعل الهزائم الرومانسية التى أثرت كثيرا على كيانى الإنسانى، ومع هذا فإن ما استطعت الوصول إليه بعد أن اقتربت من الستين لايكاد يعكس اضطرابات هذه الفترة لكنه بالقطع يفسر الكثير من أحداثها، بل إن متابعة انتاجى الشعرى فى الشعر أو المسرح الشعرى بعد ذلك (وأيضا إنتاجى المبكر فى كتابة القصة) يمنحنى إقتناعا بأننى لم أتخل قط عن هذا الحس الشعرى إما بالكتابة أو بالإغراق فى التجارب المؤسية (فقد كان وجدانى يغرق فى هذه المأساة) التى تترجم دائما كل فترة من فترات حياتى

ومهما يكن فإن متابعة ما بقى لدى من الابداع يعكس تطور حركة الوجدان فى كثير من الأحيان مع وضع فى الحسبان فترات الهبوط التى كانت تتلاشى فيها المحاولات الشعرية وقدر ما من الإرادة لأكتب فكان الصمت يفسر كثيرا من مناطق السكون الإبداعى هنا وهناك ..

ومراجعة ماتبقى لدى هنا سوف نلاحظ أن محاولاتى الشعرية بدأت حثيثا فى نهاية الستينات، وتصاعد المد فيها مع تجاربى الإبداعية خاصة أو بشكل أدق تجاربى المستحيلة

فقد كانت كل تجربة (اجتماعية أو وجدانية) تمثل أو تعكس واقعا مستحيلا لم أكن لاستطيع تجاوزه إلا بالإيمان وبكثير من المحاولات الإبداعية ..

وهو مايفسر كيف استمرت محاولاتى الإبداعية فى الشعر من السبعينات وتهادت في الثمانينات لتصل الى مساحة عالية من الرؤى الفنية مع تفاقم العديد من المواقف الاجتماعية أن انحصرت فى شكل القصيدة والقصة لتظهر أكثر - فيما بعد فى نهاية القرن العشرين فى المسرح الشعرى الذى استطعت إخراج ثلاث مسرحيات شعرية منه إلى عالم النشر بالفعل .. وفى بداية القرن الحادى والعشرين لأنتهى من عدة مسرحيات شعرية أخرى.

وعلى هذا النحو فإن محاولاتى الإبداعية بشكل مايمكن أن تفسر الكثير من مواقفى الاجتماعية والوجدانية وإن تغيرت آليات التعبير عنها ..

❑❑❑

وهو ما يسعى بى هنا لمحاولة الإشارة إلى هذه المحاولات وتأجيل البقية منها إلى ملحق فى نهاية هذه المحاولة أو إلى (الببليوجرافيا) التى أتركها فى نهاية الكتاب لتشير إلى دراما المسرح الشعرى الذى امتزج فيها هذه الدراما بالشعر الابداعى الفردى.

والغريب أن كثيرا من أوراقى فى هذه السن كانت تحمل بعض أبيات إبراهيم ناجى منها:

ويح الحـــيـــاة اليـــوم أين جـــمـــالهـــا

وعـــلام اخـــفـــاقى بـهـــا ونجـــاحى

ومنها أيضا (ولنتأمل) :آه من يأخذ عمرى كله

ويعـــيـــد الطفل والجـــهل القـــديمـــا

غير أن هذا الاجمال الدال هنا لابد أن يسلمنى إلى شىء من التـفـصـيل حين أربط بين أطيـاف الرومـانسـيـة القـاتمة وتجلياتها الدامية فى التعبير عن الواقع فى الإبداع ..

وعلى هذا النحـو فـإنه لايمكننى الخـروج من اطيـاف الرومانسية عبر التعبير الرأسى الى تجليات الرومانسية عبر التعبير الإبداعى إلا بعد التمهل أكثر عند هذا التعبير الأخير .. وهو ما أتمهل عنده أكثر الآن ..

وعلى هـذا النحـو يبدو الفرار من التـعـبـيـر الرأسى الى الأفقى ضرورة لابد من العودة إليها الآن ..على وتر الإبداع.



(٣)

من سفر الخروج

إرهاصات الابداع
(المستوى الأفقى)

كثيرة هى مساحات الخط الأفقى هنا فلم أتوقف طيلة هذه السنوات عن القراءة والتأمل والوحدة والاطياف الرومانسية الحزينة التى كانت تفرض نفسها علىّ بشكل مستمر حتى أصبح تكوينى فيما أعتقد جزءا منها ..

وعلى هذا النحو سأحاول الآن استعادة أطياف هذه الرومانسية ولكن فى مناخ الإبداع مع ما فى إبداع هذه الفترة على المستوى التقنى من بعض الأخطاء التى لم أهتم فى فترة متأخرة بإصلاحها .. وحيث بدا أن المساحات الذاتية والجمعية تختلط جميعها فى هذا الحس الجديد الذى ظللت أسيرا به وله - لسنوات حتى بعد أن غادرت الجامعة فى السبعينات لأعمل فى الأدب والثقافة فيما بعد ..

وأذكر أننى منذ نهاية الستينات وطيلة السبعينات هبوطا إلى الثمانينات كتبت مشاعر ثرة من الشعر كان يدفعنى إليها موج الرومانسية القاتم، كما كان يحوطنى هذا الحس الهادر

الصامت بالألم الرهيب فى أعماقى، فلا أجد فى هدأة الليل أو بين صياح المواصلات العامة إلا هذا السكون السرمدى الحزين، فأقبض على القلم وأجلس فى أى مكان أردت أن أنقل فيه ما سيطر على من مشاعر، وأذكر أننى جلست كثيرا فى ظلام الصحراء حين كنت أحمل السلاح فى انتظار هذا الإسقاط المعادى الذى يعلن عنه وحين يطول الانتظار وحين يهجع الفجر - تنتابنى هذه الحالة فأقبض على هذا القلم الرصاص الذى لم يكن ليفارقنى لأدون به هذه الأبيات من الشعر أو الكلمات التى تتناثر مع التفعيلات التى كنت أتقنتها مع دأب (التشطير) الذى شغلت به كثيرا ..

وما كنت أفعله فى هدير الظلام فى الجبال أو الصحراء هو هو ماكنت افعله فى نهاية القضبان الحديدية التى كانت تجاور البيت الذى كنت أقطن فيه فكثيرا ما كنت أحمل أحلامى الرومانسية والحس المرهف القاتم لأقطع مسافة طويلة على قضبان السكك الحديدية حتى أصل إلى مايسمى (التصادم) أو الحديد الذى نجده فى جراجات السكك الحديدية وقبل أن يخيم الليل أو بعد أن يخيم فى الظلام والمساء كنت أخرج قلمى الرصاص لأحاول أن أحول مشاعرى اليومية الغاضبة الحزينة إلى أبيات من الشعر أو

أحول نهاية مرحلة حميمة مع حبيبة إلى لحظة توهج فى ظلام الليل وبين طبقات السمادير المظلمة فى أعماقى أو خارجها ..

فى هذه الفترة المبكرة وجدت أشعارا وقصصا قصيرة بل ومشروعين من المسرح الشعرى بين اوراقى ورغم أننى نشرت بعض القصائد فى الصحف أو المجلات العربية فى هذا الوقت فإننى عثرت بين أوراقى على العديد من القصائد التى لم تنشر، وقد حاولت وأنا أدون هذه الأوراق الآن أن أجمع ما بقى منها ليضمه ملحق أعتزم أن أبقيه فى نهاية هذه السيرة..

بيد أننى لم أستطع الآن أن أقاوم هذه الرغبة لأدون بعض ما كتبته مرتبطا بهذه الأحداث التى أحاول استعادتها ومن ذلك هذه القصيدة التى عثرت عليها فى نهايات عام ١٩٦٧ وبدايات ١٩٦٨ عنوانها (ياضيعتى) على هذا النحو:

يا ضيعتى إنــى إذا	هجر الحبيب وأبتعد
ترك النيران بقلــبى	بين الضلوع والكبـد
هام الحنين وما بــه	مثل حنينى مستبـد
فإذا مضى وإذا أتى	وإذا بدا ما كان يبد
غاب الحبيب وإنمــا	غاب الحبيب المفتدى

ولم ألبث أن كتبت بتاريخ ٧/١٠/١٩٦٨ هذه الأبيات :

ياعزيزى وصديقى وخليلى فى المحن

وسبيلى فى الحياة ورسولى فى الإحن

إلى آخر هذه القصيدة الطويلة ..

ووجد تحت عنوان (إلى يامصر) وكلمات جانبية (كتبت فى أعقاب محاكمات الثورة لمحاكمة الخونة من أمثال"الغول" و"عثمان نصار"و"صدقى سليمان " والسبعة الذين كانوا نواة الانقلاب. وجدت قصيدة طويلة تبدأ بهذه الأبيات :

إلا يامصر والأبناء عق وعار يحتوى البلد الأمينا

ونوم يملأ جفن مقلتيهم السكر وسمع يملاءه طنينا

وزيف قد تبدى اذ تبدى وخلف الستر مايشق علينا

والقصيدة طويلة كتبت فى نهايتها أن بها أخطاء من مثل: ثم أنها كتبت كما هو مدون بتاريخ ٢٠ فبراير ١٩٦٨ بالوحدة العسكرية بصحراء - طريق السويس ..

ولا أريد أن أنقل أبياتى كلها هنا فهى تجارب تعكس الواقع وليس بقصد رصد الفنية أو الإبداع وسوف أسعى لنقل البعض منها كماهى لرصد تجليات هذه الفترة قبل أن أستعيدها عبر تسجيل المذكرات ..

كنت فى نهاية الستينات قد بلغت غاية المرارة والحزن لأن النهاية المحكومة سلفا عن علاقتى بالفتاة المسيحية توشك أن تنتهى، فرغم ليال كثيرة من المغامرات للقائها وعشرات الخطابات الدافئة بينى وبينها قد أنتقلت بين الجانبين فقد بدا أن النهاية المستحيلة توشك أن تأتى وبالفعل أتت غير أنها قبل أن تأتى طالت فكانت هذه الفقرة المحكوم فيها على المجنى عليه بالإعدام هى الفترة الذى يرفع فيها على عنقه سيف الإعدام وقبل أن يهبط هذا السيف كانت الفترة فترة الخوف والروع قد طالت أذكر أننى فى هذه الفترة عبرت عما يذيبنى بعديد من القصائد او هكذا سميتها وإن كنت دائم الاطلاع وحفظ الاشعار مع الحرص على الوزن و(التشطير) ويمكننى فى هذه الفترة ان اسجل قصيدتين هنا رغم إننى أكره فكرة النقل، نقل هذه القصيدة من التاريخ الى اللحظة الراهنة وهو نقل يرتبط بالاعياء اكثر من استرجاع الألم ، وكل قصيدة تعكس هذه (الحالة) حالة انتظار هبوط السيف على الرقبة، فى المرة الأولى وجدت بين أوراقى فى هذه الفترة قصيدة بعنوان :

(إعصار الساعة السابعة) أستعيد فيها هذه اللحظات وهى كالتالى كما كتبتها بالحرف :

"......كان العقرب الصغير يشير الى الساعة السابعة وهو يختلج وكنا نتأهب للوداع فى إعصار الوداع ذلك لاختلاف العقيدة فكان عليها أن تكون رابعة وأن أعيش أنا لهمس اللحن الأسير وشعرى ."

يملأ الصدر الألم باختلاج السابعة
والقطارالآن يطوى فى حنين أضلعه
وشفاه وعيون فى فراق دامعة
وفؤادى والهوى والأمانى الجائعة
أنا لن ألبث أمضى وأراها راجعة
ومضت عنى خفافا كنسيم وادعة
وظلال فى المغيب كحباب فى الجعة
وائتلافات صباح وليال موجعة
وارتعاشات وليد فى ابتسام رائعة

❑❑❑

حتى اذا بينى وبين حبيبتى مقدار رقعة
عينانا تلقى بعضها والعشق نزعة
والقلب يخفق مثلما .. اخفاق لذعة
عادت تجر وشاحها فى خطاها واسعة
اخذت بكفى كأنماتخشى على شر صفعة

واحتوت كفى حينا واحتوتنى دامعة

واحتوى الثغر الجميل غمغمات راجعة

مثلما كانت تغنى تتغنى .. رابعة

٢٥/١٠/١٩٦٨ :

وعلى هذا النحو سعيت لأنقل هذه القصيدة وإن يكن مستواها الفنى ليس عاليا فقد سعيت فيها إلى بحر "الخفيف" وإنما أثرت أن أنقلها لأعكس درجة الشعور الرومانسى القاتم الذى كان يحتوينى فقد رأيت الفتاة فى حلم أمض وواقع حالة وهى ترحل الى الجنوب واستعدت هذا كله بعد فترة وكأنه مازال واقعا فالحدث مر غير أن آثاره مازالت هى هى هنا .

ووجدتنى أكتب بعنوان (بعد الفراق) فى ١٩٦٩/٣/٩ قصيدة أخرى وأعقبها بكلمات أكثر دلالة تبعد عن تفعيلة (متفاعلن) التى سيطرت على فجاءت نثرا بسبب الموسيقا الداخلية التى طغت على غياب التفعيلة وعوضتنى عنها أحيانا على هذا النحو:

ضاع الوصال فأنسنى وهوى القيثار والوتر

ومضى الرواء بخاطر أودى براحة العمر

ومالبثت أن اقتربت من بحر الكامل فسقطت فيه فأكملت:

وقضى الاله بنجونا ألا يعاودنا السمر
ومضت أمانينا هباء فى خيالات القمر

.. ..

تلك التى حدثتها بالدمع طورا .. والثغر
تلك التى خليت جهدى والأمانى والظفر
هى خاطرى أودعته حلم المحب المستعر
حنث الوصال ياصديقى يا رفيقى يا أغر
جئت الربوع براحتى ورجعت منها بسطر
خلفت قلبا عاده من كيوبيد الوتر
اسمعته ضحك الأمانى وافتراءات الزهر
وغناء ربات "الأولمب" هناك فى ظل الشجر
وليال بغداد العزيزة والعزيز شهرير
متفاعلن متفاعلن متفاعلن متفاعلن

وحين وضعت القصيدة جانبا وجدت بظهرها كلمات بالقلم الرصاص تعبر عن اللحظة أثرت أن أسجلها هنا على النحو التالى (هذه القطعة كتبتها فى لحظات رهيبة .. كنت رأيت أمامى نهاية قصة حب عنيفة عشتها وأنا بعد فى أوج عمرى

وزهرة شـبـابي.. بكل مـا في هـذه المرحلة من تقلبـات وأهواء وبروق وعواطف وانواء بكل مافى هذه السن من طموح وأحلام خضـراء / كنت أرى أمـامـى كشاب غر جثة هامـدة كل شيء غرب عني..كل حلم دغدغني فر مني ..كل بسمة ألهمتنى الأمل كل قسمة وهبتنى أكثر مـا يوهب .. وصـحوت.. فـوجـدتنى في دنيا جديدة.. ولكنها دنيا مابعد الفراق)·

وأعتذر بالطبع للقارىء الكريم لاستعادة هذه التجربة بهذه الصـورة غيـر أننى لم أجـد أكـثـر من النقل (المصـمت) من الاوراق القديمة ما يعكس التجربة ويجسدها أمامنا الآن وإن كنت/ وكـان ..لانرى فـيـهـا غـيـر (قطعـة) من الزمن لابد من استعادتها بهذه الصورة ..

ليس بـأثر رجـعي وإنما جـهـدت أن تكون نقـلا مـصـمـتـا صـادقـا الى حـد بعـيـد، وكـيـلا أطيل فـسـأرجيء بقـيـة هذه التـجـارب الشـعـرية - الى مـلحق آخـر وأسـتـعـيـد هـذا الواقـع الرومانسى بصوره العديدة ..

أوراق قديمة
مستوى التدوين

هذه أوراق من نوع آخر فليست هى تمضى فى مستوى رأسى (بالحوادث) أو رأسى (بالإبداع) وإنما تسعى إلى هذا وذاك بالعود إلى هذه الفترة التى تبدأ تحولاتها التالية فى السبعينات فهذه الفترة المهمة التى اخترتها لتعكس الماضى حرصت فيها أن (أسجل) ما وجدته بين أوراقى خوفا وخشية أن أكون حيث سعيت إلى المستويين السابقين الرأسى والأفقى أن أكون قد تأثرت باللحظة التى أكتب فيها هذه السيرة وهى بداية الألفية الثالثة، فقد حرصت أن أدون فى كل وقت كل مشاعرى وليس غريبا أننى التقى من آن لآخر فى مذكراتى الشخصية بعبارة تقول إن ما أنقله بالحرف الواحد (لم يبق لى .. غير أن أكتب رأيى للتاريخ) وهى وإن انصرفت إلى كتابات البحث التاريخى فإنها هنا تنصرف إلى الواقع التاريخى كما هو لا كما يجب أن يكون حين نراه فى فترة زمنية تالية..

ومن هنا فسوف أحرص على أن أنقل ومعذرة للقارىء الكريم من أوراقى القديمة التى تحمل رائحة الزمن ليس فيما تحتويه فقط وإنما أيضا فيما ترسله لنا عبر تحليلات الأوراق

والأتربة وذرات الساعة .. ها أنا أضع بعض هذه الكتابات عام ١٩٦٨ كما هى:

٢٥ اكتوبر

هو ذا يوم الجمعة انتظرت الصغيرة فى الصباح.. لم تأت ..كانت قد ذهبت عنوة مع أقربائها لتحضر اجتماع جمعية الشابات المسيحيات.. انتظرتها الساعة الثانية ظهرا كما اتفقنا دون جدوى.. لم أستطع الانتظار أكثر من ذلك ... كان على أن أعود إلى الثكنة العسكرية (القشلاق) فى الخامسة ..حين عدت مساء اليوم التالى (بغير تصريح وإنما بالتسلل بعيدا عن أعين ضباط القشلاق أو ضباط الشرطة العسكرية فى القطار) كان همى الأول أن ألتقى بها فى المساء ..فى المساء .. فى الظلام .. التقيت بها بالفعل فى فناء بيتنا القديم .. جاءت بعد أن نام أهلها ..كنت تعب ومشتاق كانت خائفة وهامسة .. كنت الليلة السابقة كلها يقظا أحمل السلاح فى الظلام فى (الخدمة) وأترقب مرور الوقت .. وأخشى من مرور الرقابة على فى الليل (النوباتشى) كما أخشى الإسقاط العسكرى الذى كانت القيادة تشير به إلينا كل مرة يحدث فيها مثل هذا الإسقاط.. ولهذا كنت تعبا .. لكننى كنت أيضا فرحا منتفضا كالديك المذعور حين لمست يديها..

ومع ذلك نسيت ماحدث فى نوبة الحراسة الليلة الماضية وما سيحدث هذه الليلة الآتية أيضا حين أقضى ثلاثة أيام لا أعرف فيها النوم ليس لهذه الظروف التى أتحدث عنها حين التقيت بها وحسب وإنما لأن جهاز النوم عندى غريب .. فمن الصعب أن أنام حتى بعد بذل أى مجهود لم أكن لأعرف النوم ليس قلقا وربما لأننى دائما فى «حالة القلق» وإنما لعل ذلك يكون صحيحا أن تكوينى دائما فى حالة يقظة ..

تناجينا أنا وهى فى صمت وحنان فائق أحسست فى عينيها الحنان ولكن أيضا الهلع الشديد من أهلها ..

٣٠ أكتوبر

أسعى للالتقاء بها دون جدوى .. عرفت أن البعض أسر إلى أهلها بمثل هذه العلاقة .. إنهم ينتمون الى الجنوب إلى التقاليد الحادة وخاصة أن القضية أصبحت تنتمى إلى العقيدة وبوجه أخص لأن الشقيقة الكبرى ذهبت وتركت واقعا مؤسيا لدى العائلة ..

أدركت (حالة) الرعب الذى يمر به أهلها .. كنت أرقب لقاءها فلا تحضر.

كنت أرقب ذهابها إلى الكنيسة كل مرة محاطة بكتيبة من الأهل تظل معها فى الهيكل لساعات.. لم تكن الكنيسة غريبة

عنى فقد نشأت لسنوات فى مراحل عمرى الأولى بقرب كنيسة وتسللت وأنا طفل إلى داخلها وتعمقت فى داخلى هذه الأناشيد والأكاليل التى كانت تتسرب في داخلى .ولذلك حين أخذت عيناى ترقبها وهى تمضى للكنيسة ذلك اليوم وبعدها ترتفع الترانيم كنت لا أحس بالغربة وأنا أسمع «ترانيم حزن..جراح» التى كانت تدفع إلى بأوراقها قبل أن يعلو الصوت بها وقبل أن أكتشف وأنا أسبح فى الفضاء التخيلى بعد ذلك بسنوات أصداء هذه الترانيم العذبة التلقائية الراقية رغم عديد من كلماتها تترى بلهجة مصرية خالصة:

حزن جراح وصراخ ودموع حربة وشوك وصليب مرفوع

خاطى بيطلب دم باريه ودموع ام بتبكى يسوع

يا زمان أشهد مين مات مصلوب مين جه يفدى الكون بدماه

و موت ابن الله مكتوب علشان يدى الخاطى حياه

ضلمى يا سما وافتحى يا قبور وابكى يا زمن الأحزان

سلم روحه إله النور على ايد خاطى اسمه الانسان

عدى يسوع كل الألامات وفتح أبواب الفردوس

شال عنا خطايانا ومات لكن كان على الموت بيدوس

وأحس بالألفة أيضا وأنا أسمع ترنيمة أخرى فى هذا

الصـبـاح "حـاسـس حـبك" والفـتـاة الرقـيـقـة داخل الكنيـسـة تترامى الى الأصوات الهادئة الوديعة.

كل ما تطلع شمس نهارك
بسمع قلبى يسبح اسمك
واسمع صوتك ربى بيهمس
عمرى فى يوم ما اتخلى عنك

....

(حاسس حبك لا مس عطفك
جوه فى قلبى كل زمان
عمرى ما أحس بخوف وأنا جنبك
أبدا ما عرفت الأحزان)
ربى وهبتك كل حياتى
جوه فى قلبى كل زمان
لكن لكل حياتى ما تسوى
جرح صغير من عذاباتك
خلى سطور إنجيلك غيتى
خلى كلامك شمعة يا ربى
طول ما أنا ماشى تنور ليه
وأنت معايا يا ربى فى دربى

لم أكن لأحس بالغربة فهذه الترانيم وغيرها عرفتها مذ كنت صغيرا وأقترب بها مع أصدقائى المسيحيين حين كنت أذهب معهم إلى الكنيسة فى المناسبات وغير المناسبات ولذلك لم أكن لأحس بالخوف من الكنيسة فقط الخوف والرعب من أهالينا ..

حدثتنى طويلا عن شقيقتها التى ذهبت لدين آخر مع شاب آخر وحدثتني برعب وهى تبكى عن ظروفها الأليمة فهناك مباحث.. نعم مباحث تراقب الجانبين .. كان هذا حين قلت لها إنها لاتخرج إلا لتذهب إلى الكنيسة، قالت إنها تذهب مع الأهل وتحت سيف الخوف.

لا أريد أن أواصل التدوين فلدى أوراق كثيرة وكتابات كثيرة غير أن النهاية هى التى تهمنى الآن لقد انتهت علاقتنا أنا وهى – حين اتفقنا معا على الذهاب بعيدا عن أهلينا والزواج والعيش فى مكان بعيد وشددت هى برعب على كلمة بعيد، وفى صباح اليوم التالى وقبل أن نقوم بتنفيذ ما اتفقنا عليه لم تأت.. سألت فأخبرنى أكثر من جار أنهم ذهبوا.. الفتاة وأهلها .. إلى الجنوب حيث جاء الأب أول مرة من أقصى الصعيد .. اختفت ..

عشت فترات من الاضطراب الشديد بين وجودى فى

صحراء "الروبيكى" طريق السويس ، وبين عمليات التسلل بالطائرات المعادية الى المعسكر الذى أجند به، والقيام بالقذف بعنف لأكثر من مرة تعرضت مع وحدتى للقذف الشديد، كان اختفاء الفتاة متوازيا مع ضربات الاعماق التى منيت بها بلادنا، فى هذه الفترة التى شهدت تسلل الطائرات المغيرة وإصابتى وانا ارى كل "دفعتى" تتمزق حولى - ..

شغلت بالدراسة للحصول على الثانوية العامة، أتذكر أننى لم أتوقف عن العمل الدراسى إبان الحرب بيننا وبين إسرائيل أشهد أننى كنت أذهب إلى مدرسة ليلية ـ راغب مرجان ـ وأذهب لأكثر من مرتين أسبوعيا إلى الجامعة الأمريكية للحصول على مستوى عال من الترجمة فى الفرنسية، كانت الجامعة الامريكية فى هذا الوقت تدرس الفرنسية قبل ان تلغيها فيما بعد - بل إننى أذكر وأنا أتسلل للخروج من الجامعة الأمريكية فى إحدى المرات (وكنت متسللا بدورى من وحدتى التى أصبحت بهاكستب بعد القذف المستمر لها وحركات الانتشار التى انتهت بها الى هاكستب) .. أذكر أننى وقد كنت أهم بالخروج وكان العام عام ١٩٧٠ أن أمسك بى اثنان وحدثونى فى صمت أن أذهب معهما، ولا أتكلم تصنعت الهدوء ليذهبا بى إلى إدارة المخابرات العسكرية

بمدينة نصر (وكانت فى مرحلة التشييد) وهناك ظللت لأيام تحت الاستجواب لمعرفة سبب ذهابى إلى الجامعة الامريكية..

واستطعت بعد عدة أيام إثبات أننى كنت أدرس لغة .. عدت إلى وحدتى لكن بعد معاناة الاستجواب والتحذير من الكذب وما إلى ذلك لأجد نفسى محروما من الإجازة لفترة طويلة ..

ومهما يكن فإننى حين فقدت فتاتى التى حملت إلى الجنوب واختفت وجدتنى فى حالة إصرار على إستكمال الدراسة ومعرفة عدد من الفتيات بشكل عابر غير أن القصة الأخرى التى كان لها تأثير كبير فى حياتى لاتقل عن القصة السابقة كانت قصتى مع شهرزاد .. وشهر زاد فتاتى الجديدة التى عملت من أجلها الكثير كنت صديقا لشقيقها وصديقا لأبيها الذى تعرفت عليه بخلق ظروف مناسبة.

غير أن الاقتراب من شخصية تحمل هذا الاسم، وتعمل على خلق اطار اسطورى حولها، ويسعى أهلها للتنقل دون قصد من القاهرة الى جنوب مصر إلى أسوان ثم الى الوادى الجديد ثم يعود الى الاسكندرية وأنا ساع وراءها وورائهم .. كان لابد له أن ينتهى مع تغيير الكثير من الظروف فى نهاية السبعينات ..

تغرينى الأوراق الكثيرة بين يدى الآن أن أكتب بعض اليوميات وأسعى فى الصعود إلى نهاية السبعينات بعد انتهاء علاقتي بشهرزاد ..غير أننى لن أفعل ذلك. لقد ظللت لسنوات انتظرها، وظلت لسنوات تمنحنى الأمل بالصمت والخوف من الشقيق الذى كان يحمل رتبة كبيرة فى جهاز الشرطة والأب الذى كان يعمل فى مديرية المحافظات، وهو مدنى لكن بنفوذ كبير .. وانتهت القصة بغضبى وزيارتى الأخيرة لها حيث أصبحت طالبة فى السبعينات فى جامعة الاسكندرية(قسم الحضارة) وهناك اتيت بها إلى "كافتيريا " الجامعة وكانت غاصة بالطلبة والطالبات وألقيت عليها بعنف كلمتى الأخيرة بأن كل ما فعلته من أجلها كان يجب ألا يكون..

بهتت حاولت أن تستعيد بعض مافعلت وكانت تجهله.. نهضت.. تركت الاسكندرية وعدت إلى القاهرة لأحاول الانتهاء من السنة النهائية من الليسانس ..

بين يدى العديد من القصائد التي كتبتها عن شهرزاد لا أريد أن أنقل منها شيئا، أى شيء، ألاحظ أننى أزهد فى ذلك تماما ..

وفى كراساتى القديمة عديد من اليوميات المدهشة التى

تستولى على سنوات طويلة من السبعينات.. لا أريد أن اشير إلى أى منها .. فمن صنع شهرزاد هو الخيال الذاتى المستحيل، وليس الواقع السرمدى بأية حال .. لقد بدأت القصة الرومانسية المبتهجة بالتساؤل والحيرة وانتهت بعد يأسى من التنقل المستمر لعائلة الاميرة وغياب الاميرة نفسها فى أقنعة غريبة ، ثم غمامات الحياة التى تحولت اليها فى السبعينات بحكم التنقل إلى الجامعة والانشغال بفتيات كثيرات انشغالا لم يتعد قضاء الوقت فى الجامعة، ومازلت اتذكرجلسات طويلة ضائعة مع فتيات كثيرات أمام قصر الزعفران بجامعة عين شمس حيث كانت هذه الحديقة الشاسعة أمام القصر الأصفر تفيض بكثير من الخيال لى، وربما بكثير من الغموض الذى أهرب إليه لأسباب لم أكن لأدركها بشكل مباشر وإن كان واقعى القاتم حينا ومتاهات الخيال الذاتى احيانا تدفعنى اليها .. كنت مع كثيرات نتحدث فى اشياء كثيرة ونغلو فى أحكام رومانسية غامضة ونخلو إلى أحلام بعيدة مبهمة كان يبدو أن بينى وبين الفتيات الكثيرات الذين عرفتهن من كليات الآداب والحقوق الكثير من الاتفاق على كل شىء إلا الارتباط المقدس إلا الارتباط من ناحيتى بأى شكل .. غضبت منى الكثيرات بالطبع وغضبت من نفسى طويلا أيضا ..

غير أن غضبى وحزنى القائم الدائم كان اكثر ما ساد وغيم على وجدانى ولم يتركنى أبدا ..ففى نهاية السبعينات كنت قد انهيت دراستى الجامعية بجهد جهيد بين انواء العنف المسلح فى معركة سميت (نكسة) ١٩٦٧ وأشياء الواقع بين عامى ١٩٧٣ ــ ١٩٧٦ الذى خرجت منه إلى شىء قريب منه لكنه ليس مثله ابدا ..

لقد وجدت نفسى فى الجامعة طالبا جامعيا لكننى أعمل فى الواقع (عاملا) فى مطابع الأهرام التجارية .. لقد حملت أحلامى المتخثرة الآن فى واقع كان لابد أن أتعامل معه بعنف وقسوة .

قضيت سنوات قبل أن أخرج من الجيش المصرى بعد ١٩٧٣ ، لانتقل بعد حصولى على مؤهل عال إلى قسم (التصحيح أو المراجعة اللغوية) بالأهرام فالمسئول الأول عن (مجلة الشباب) بالقسم العلمى، بعد أن انهى النظام توجه المجلة السابق (الشباب وعلوم المستقبل) ووجدتنى مسئولا عن مجلة تبدو انها تقدم مادتها إلى الشباب ، بينما تغرق فى قضايا علمية أراد رئيس تحريرها الجديد أن تسيطر على (خطابها) أمام المسئولين ..

أصبحت مسئولا عن المجلة وأصبحت أحد كتابها ..

وأصبحت في الوقت نفسه حائرا ماذا أفعل بحياتى الجديدة ..

كان الزمن الجديد يفرض موضوعات جديدة فى (اجندة) نهاية السبعينات، هبوطا إلى نهايات القرن العشرين، كان يفرض تغيير الوجدان او محاولة تغيير الواقع النفسى لأتعايش مع الواقع الجديد . وعرفت ـ كما اشرت – مغامرات عاطفية كثيرة فى الجامعة أدى بى بعضها إلى التورط فى خطبة زميلة معيدة ، لكننى وسط الحيرة التى كانت تتفاقم فى نهايات السبعينات استطعت الخلاص من هذه الخطبة، قبل أن أنتهى من علاقات أخرى كثيرة، كان يدفعنى اليها هذا الواقع الجديد، وكان كل ما أفعله رد فعل لشىء بعيد.

كان يدفع بى كل هذا إلى تجليات إبداعية كانت تعبر فى البداية عن تجارب ومحاولات وجدانية صادقة، عرفت فيها بالطبع تهويمات من الخيال بين خيانة البعض منهن كما صوره لى بعض مؤامرات الأصدقاء وبين المحاولات الوجدانية الصادقة والخيانات المتوالية والتجارب التى صعدت بى إلى أقصى درجات الحب (الحزن) والقاع (الضياع) عبرت عن هذا كله بالشعر ..

لم أستطع أن أنهى نهر الشعر الرومانسى الرقراق الذى

كـان ينحـدر بى منذ المرحلة الاعـدادية أو أنحـدر بـه مع الفـضـائيـات غـيـر النهـائيـة منذ عـرفت أشكال الهـزيمـة (النكسـة) في الصـحـراء وبين أشلاء (دفـعـتى) فى أكـثـر من قصف لوحدتى فى الصحـراء الممتدة إلى شـرق مصـر حتى انتـهى بنا الأمـر نحن دفعة النكسـة إلى الانتـقال تـخفـيا إلى وحـدة فى قصـر مـهـجـور فى منطقـة (جسـر السـويس) بين منطقـة تبدو عـامرة بالمدنيين تخـفـيـا بآلاتنا العـسكرية التى كانت تجيئنا سـرا من الشمال السـوفيتى ..

هذه الفـتـرة التى عـرفـتـهـا وعـرفـتنى فى السـتـينات والسبعينات صعودا إلى الثمانينات، هى التى حاولت أن أعبر فـيـها عن واقـعى (الوجدانى) بالشـعـر وقد يكون من المهم أن أتمهل عن تجـاربى الوجدانية هنا (وأترك القـصـائد الوطنية لكثرتها).

ولأعد إلى الصـعـود الذى يسلمنى إلى الهـبوط وهو (حـال) كـان ديدنى دائمـا، صـعـود يصـوره الطمـوح وهبـوط يصـوره الجمـوح، أحـاول أن أنقل بـعضـه هنا عبر كتاباتـى الشـعـرية التى كنت أحـرص أن تعبر عنى أكـثـر مـايكون التـعـبـيـر، ولا أخطىء فيها فى الوزن..

بيد أن هنا ملاحظة أود أن أكررها أكثر من مـرة هـى أن

طيف الشعر الذى سيطر علىً طيلة الحقبة بين الستينات وبدايات الثمانينات، كان لابد أن يتحول إلى طيف مغاير آخر، فحين يضاف إلى الشعر الفكر والمعاناة الجامعة والانسحاق اكثر واكثر فى منحدرات الأيام، يتحول فيما اظن إلى شكل آخر ، فقد لاحظت أننى أعدت النظر فى اداة التعبير على الورق، وبعد أن كنت اسبح فى تيار الشعر واطيافه المتباينة، رحت اعيد المحاولة ولكن فى الدراما، فقد استبدلت بكتاباتى الشعرية المتأثرة بروح الرومانسية الدراما الشعرية المتأثرة بروح الواقع ..

وبدلا من الجنوح إلى القصيدة بدلالاتها المترقرقة آثرت الجموح إلى روح الدراما الشعرية فى مسرحياتى التى كتبتها قبل أن ينتهى القرن العشرون، فكتبت ثلاث مسرحيات شعرية تكثف فيها الهم العربى (الجمعى) ولم ينسه ذلك أن يعرف رفاقه فوق ربوات الاولمب، غير أن ربوات الواقع المرير كانت أكثر دفعا لهذه (الحالة) التى عبرت عنها فى الدراما الشعرية بين كتاباتى النقدية والتاريخية والسياسية الصارمة بين اسوار الجامعة او خارجها لسنوات طويلة فى نهاية القرن العشرين او بدايات القرن الحادى والعشرين .. وهو مالاحظته فى هذه الدراما قبل أن ينتهى القرن العشرون :

- الحصار
- الخروج من المدينة
- اللاعب

ثم في هذه الدراما الشعرية التى أنتهى من بعضها الآن، فى بدايات القرن الحادى والعشرين :

- عودة الفرعون
- الطريق إلى النمر

الفارق الوحيد أننى فى قصائدى الرومانسية القاتمة عولت فيها على تفعيلات بعض البحور المعروفة : فى مقدمتها الوافر والكامل والبسيط .. غير أننى فى الدراما الشعرية القائمة فى الواقع المؤسى القاتم اتسعت الرؤية الوزنية أكثر فقد اضفت إلى البحرين الاثيرين لدى : الوافر والكامل عدة بحور كانت اكثر ملاءمة لروح الدراما ففى مسرحيات (الحصار) اضفت المتدارك والمتقارب والرمل وفى (اللاعب) اضفت ايضا المتدارك والرمل والمتقارب غير أن (الخروج من المدينة) النص الثالث ركزت فيه أكثر على الكامل بالاضافة إلى البحور السابقة .. وفى النصوص الأخيرة (عودة الفرعون) و(الطريق إلى النمر) سعيت إلى البحور مؤثرا فيها (المتدارك)

لقربه من الحس الشعبى إلى حد بعيد، وفى جميع الحالات فقد كنت أردد بينى وبين نفسى دائما، رغم حرصى على الالتزام بالوزن الشعرى- ..قول باسترناك بأن أجمل مافى القصيدة ذلك السطر الذى يبدو نثرا..

وعلى أية حال أترك للقارىء الحصيف تلمس هذه المحاولات دون غيرها فى الدراما لما فى الدراما المسرحية او (الميلودراما) كما عرفها جيلنا من سمات تدفع إلى استخدام مثل هذه الوعى وتلمس الصدق فيه إلى حد بعيد.. غير أن هذا هو ما كان قائما بالفعل وبقى الوصول إلى صور التدوين.. لأتمهل إذن هنا - أكثر - عند مستويات التدوين الإبداعى ..

أوراق شعرية
(مستوى التدوين)

ياله من ارتباط مربك لم أكن لأستطيع الخروج منه فى هذه الفترة المرتبكة لأتحسس نفسى جيدا مع نهايات القرن العشرين .. لكنى أدون بعضه من الورق ..

لأنقل التدوين ولأحاول ...

كانت التجربة الوجدانية أو الاجتماعية الحياتية القاسية سواء فى فترة وجودى بالقوات المسلحة بين١٩٦٧-١٩٧٣ أو بعدها، قد أراقت كثيرا من الألوان فى اللاوعى لدى كاتب هذه السطور، ومن ثم وجد أن هذا اللون القاتم يكاد يسيطرعلى كل الأشياء وهو ما حاول التعبير عنه حين وجد نفسه فى مرسم أحد الأصدقاء أمام هذه (اللوحات) التى تبعث فيه هذه القتامة (لوحات) وهو عنوان قصيدة حاول التعبير بها عما يعانيه ..

وتوالت لوحات أخرى امتزجت فيها كل خيبات الحاضر فى هذه التجارب السديمية او الوجدانية التى سعى ليعبر بها عما فى أعماقه ، والتى لم تكن حصاد حادثة بعينها او موقف بعينه محدد، وإنما كان تراكم التجارب والاحباط والواقع

الاجتماعى المتراجع والحس المرهف .. وما إلى ذلك هو الذى يختار الكلمة ويحاول تدوين ما أعانيه وإخراجه من الداخل إلى الخارج عبر هذه اللوحات الشعرية، فلنترك اللوحات المتشابهات لنصل إلى الوان وخيوط أخرى تعبر عن هذا المستوى الإبداعى من التدوين فى الأوراق القديمة التى بقيت لديه ..

وقد تعددت كما سنرى التهويمات السوداء وتحددت الخيوط فى نسيج محدد وعبر ألفاظ وتفعيلات كانت تعبر عن هذه(الحالة) التي سيطرت على ثنائية السواد والرومانسية بشكل ما .

من ذلك هذه التفعيلات التى تعود بى إلى ذلك الزمن البعيد، منذ بداية الثمانينات - إذا أردت أن أنقل بعض القصائد بشكل عشوائى، سوف أترك السبعينات وما وراءها وأغيب فى الثمانينات قبل أن أعاود الحضور فى التسعينات ثانية لأعيش حالة أخرى لم أصل إليها بعد .. مع الوضع فى الحسبان أن ما أكتبه فى السبعينات أو الثمانينات لم يكن وليد تجربة مفردة يتيمة وإنما فى السياق العام كان نتاج حصاد طويل (لكل) ما مر بى وليس رد فعل لتجربة هنا أو هناك ..

إننا أمام بعض القصائد التى تحمل حالة من الحزن القاتم لم أستطع أن أخلص منها قط، وهى حالة حاولت أن تصيغ الواقع الذى عشت فيه بطبيعة التجارب التى عشتها فيها، انها قصائد تبدو عاطفية او وجدانية مغرقة فى ذلك، فى حين أن الرومانسية المفرطة فى قتامتها تظل فى حضور مستمر ..

إننا أمام هذه العنوانات الدالة المتباعدة تاريخيا لكنها متقاربة فى مستوى التدوين الحائر فى هذه الفترة لنستعيد بعض الأوراق بالترتيب الزمنى فى الثمانينات قبل أن نعاود الهبوط إلى نهاية القرن العشرين ..

إننا أمام عنوان من مثل (نداء) و(فراق) و.. إلى غير ذلك

إننا نتمهل عند قصيد تحمل عنوانا دالا (الرسالة الأخيرة..لأميرة) وهى تحمل – كما نرى هذه الرنات الدامية من الحزن القانى.. إنها تحمل هذه التهويمات الاسطورية فى الوعى الغائم .. إن التجربة الغامضة كانت تمضى فى حزن سرمدى غائم، وتحاول أن تعبر عن هذا الواقع الغائم بحيوية وحزن شديدين، فلنطالع هذه القصيدة التى حملت تاريخا بعينه (١٨ أغسطس ١٩٨٠) وهى بهذا كما نلاحظ تحمل (الخطاب) اللاوعى للكاتب/ الشاعر فى هذا الوقت لنعد وننقل .. نقرأ :

الرسالة الأخيرة..
لأميرة
فإنى أخط سطور انسحابى الحزين
.....
لأنى
لست المغنى بقصد الشموخ
ولا مضحكا في بلاط السلاطين
فإنى أخط سطور انسحابى الحزين
❑❑❑

(لأنى لا)
لست عبدا يباع ويشرى
لست مغنيا
يهان
معذرة
انسحب الآن
انسحب الآن
❑❑❑

أهواك
" ولا أنكر "
لايمكن أن أنكر هذا الواقع

هذا الواقع يتحدى الأشياء
لكن
ولأن القلب به نبض العزة والخيلاء
ولأنى أكره دوما
أن أصبح
عبدا
للأصنام
ولأنى أمقت
أشباح المسرح
معذرة
انسحب الآن

❑❑❑

لا لست أميرك
فأميرك
يعرف أشياء أخرى
كالصلف
كالترف
كرداء " الرادنجوت " الأحمر
لكن لكن لايعرف

لما يذبح
أن يصرخ
أن يعلو صوته
يتفجر
يتحدى
حتى الشيطان
......
.....
.....
معذرة
انسحب الآن.

□□□

ولا تمضى فترة بسيطة حتى يحاول الفتى ترجمة هذا كله بشكل آخر لكنه بشكل يشابه نفس الشعور الاول، يستبدل الرسالة الأخيرة (نداء) يتغير العنوان غير أن السياق الأخير فى المعنى لا يتغير ولا يكاد وهو ما نكتشفه عند التأمل والتوقف طويلا عند هذا النداء ...

نداء..

عد

ياحلما حلوا

عد

ياوشما أخضر مرسوما

فى الخد

يانجما لايعرف

ماذايبغى ويريد

يا وغدا

صدقنى ..لا أعرف بعد

ما الغد

□□□

صدقنى

قد تخبو عيناك

فى قلبى

قد يخفت حبك

من جنبى

قد تأتى

فى يوم آخر

ينكرنا

لانعرف فيه إلا.. أنا

أبناء الماضى

لا الغد

□□□

اليوم صحوت

أنكرت

دقات الموعد

ما أعرف بعد

هذا الصوت

الرعشة فى قلبى

بدأت

والشك يزيد

ماذا

أبداية تغيير ..

هل هذا النهر

يحول في قلبى مجراه
ماذا
لكنى عدت
وتماسكت
وهمست
أن عد
صدقنى.. فأنا لا أعرف بعد
ما الغد
لكنى
أعرف نفسى أكثر منك
وأخاف عليك
٤/٩/١٩٨٠

ولأننى أريد أن أضع ما دونته فى هذا الوقت هنا قبل الزهايمر ، فإننى لن اتحدث الآن ـ لن أستعيد ماكان ـ فما كان لابد أن يكون كما كان، كما هو مدون على الورق، بمسوداته القديمة ومن هنا فليسمح لى قارىء هذه السطور العزيز أن أترك بين يديه هذه القصائد الهفهفات القاتمة الهزيمة.. التدوين القديم بين يديه هنا وهى حروف لاقترب فى كثير من منتصف الثمانينات قبل الهبوط إلى نهاية القرن

العشرين وهاهى الحروف القديمة عبر عدة لوحات:

(١)

إلى الهاتف..

أيها الصامت هيا

أرفع الصوت الأثير

يتهادى..يتهيأ

عبر اسلاك الأثير

أيها الأخرس انطق

أيها الميت عد

فهوايا فى عيونى

كأتون متقد

غاب هذا الطيف

عنى ودعانى للقدر

منذ يوم منذ عام

الف عام.. انتظر

آه لو تعرف ماذا

فاعل هذا الصليل

يستحيل الحلم نبضا

يستعيد المستحيل

آه لو يخفق قلبك

مثل قلبى خفقة

آه لو تبصر سحرا

مثل نار لحظة

أيها الهاتف رفقا

بحبيب متعب

فيه اوهام كبار

وترانيم نبى

(٢)

فراق

حذرتك

أنذرتك

وسكبت دموع الحزن

هويتك

وكرهتك

آه وكفرت

أصررت

ألا ..عود اليك

□□□

أقسمت

وحللتك طوعا

من وهم ووعود

أسمته الأيام زيفا رياء

.. كنت صغيرا

وغريرا

صدقتك

ورأيتك

حلما معبودا

ودنوت إليك

وسجدت

وركعت

أسبلت عيونى فى لحظة غبت

-ليس عليك

أعرف أنى

كنت غبيا

وصبيا

فالحلم تحول

فى لحظة كابوس

أو كالكابوس

فردوس مفقود

أعرف أنى..

لكنى..

لكن

مامعنى أن أعرف

....

اليوم

الأول من اكتوبر

العقد الثامن

القرن التاسع بعد الألف

اليوم

اجفلت

أصررت

ألا أعود إليك

(٣)

خيانة

حين قال لى "أحدهم" انه رآها تهبط من أحد الأبنية مع شاب أمرد

ثم ركبا عربا .. وإن تبينت فيمابعد اختلاق الموقف ولكن بعد كتابة القصيدة وقبل أن تعود الأميرة، كتبت:

لماذا

لماذا سقطت

لماذا سقطت وراء الغيوم

لماذا

وكنت احلق دوما بحبك فوق النجوم

لماذا

.....

فأول يوم رأيت ابتسامة

وآخر يوم

رأيت القتامة

وعدت المساء الأخير اتمتم

لماذا تغير فيك الجمال

تحول همس البراءة

سراب

وعشش فى مقلتيك الخراب

لماذا

....

لماذا تفجر فيك الحنان

شهورا طويلة

لماذا تمطى على شفتيك

رفيف الخميلة

لماذا غمست عيونك

بين سمائى

إلى أن هويت حطمت النجوم

والقيتها

بعيدا

بعيدا

— .....

لماذا حملت الىَّ

الهدايا

ودبجت كل الحروف تقول :

تقول :

— "إلى الغالى

..إلى الذى أتمنى له

أكثر من نفسى

الوحيد الذى ..

..... "

نسيت الحروف

بقايا الحروف تقول :

– " إلى الغالى

الذى سأغمس نصل الخيانة يوما"

.....

لماذا

أم أن الاجابة

خيانة

خيانة

٣١/ ١٠/ ١٩٨٠

(٤)

رباعية من زمن الصمت

(١)

معذرة

(٢)

معذرة

اللحن تكسر

والكلمة صارت أرغن

مبحوح الأحرف والنغمة

والشوق

والبسمة

والنسمة واللهفة

والسعد

والمهد

والخلد

والليل

والطير

وحدائق من طير أخضر

كل الأشياء تهاوت ,

صارت تهويمات

أو كالتهويمات

(٣)

معذرة

أن أذكر

اخترت أن أمضى قبلك

اخترت أن تهجر بعدى

اخترنا

ومضيت

كان الابحار مخيفا

كان الأفق كثيفا

والتيار

اعصار من عصر حجرى عات

اخترت أن أنشب ظفرى

فى استار الغيب

أن أتحدى

من أجل عيون..

(بوصلة) من يتعلق بسراب الوهم

وجهدت

كى أعرف ملجأ

كى ألقى مرفأ

كى اسمع شيئا يزعم لى

أنك آت

أستار الليل

كانت تعوى

لن يأتى

طبقات الصوت المفرغة حوالى

لن يأتى

وعويل الريح المحزون تناهى

لن يأتى

لن يأتى

(٤)

معذرة

الآن تهاوت أحلامى

وصحوت .. أنا

أدركت .. أنا

أوصال الشوق تلاشت وعيونى كالقلب اختارت

أقبية الصمت

٩/ ١١/ ١٩٨١

(٥)

لولا

أسأل

أبكى

أسأل أبكى

أكفر

....

انضو ثوبى

أقسم بكل ضلالات المنى

أكفر حتى بالذات

وأكفربالقلب العاشق

أكفر حتى بالاشواق المرجأة طويلا

حولت القدر

ضياء وسرابا ..

ودخانا وسديما

أكفر

وبكل دلالات الشعر

وبكل خيالاتى

أكفر

فأحمل المدية فى كفى .. فى صدرى..

هل أطعن بالمدية صدرى

هل ألقى أحلام العمر

هل أبلى اغصان الاشجار

هل .. أضواء القمر

كل عذابات الطرق

وزهرات التيوليب

لولا أنى أتذكر

وجهك هذا الحلو المعشوق

وجهك

آخر ما يتبقى فأعود .. فأعود ..

فأعود.. أعود

أعود

وأكفر بتهاويم الشعر أبدل معناه الأزلى

فعلن فاعل فعلن

حتى يرتد اليوم أمامى

والطقس البارد يتبدد

فى ظل حصار القلب المتعب

وبقايا وريقات السرو

تحكى لى

بعض هموم النجم القطبى

بعض هموم النجم القطبى

كانت هذى الدنيا فى قبضة كفى

اركض بين حناياها

كالانداء الرقراقة

كنت

قبل مضى الزمن الاشيب

محفوفا بالأمر

محاطا ببقايا ندم

وكنت وحيدا

أحكى

وأعض من الندم

على طرف بنانى

قبل مضى اللحظة

أخفى بين ضلوعى

الثورة

أخفى ريح الغضب

ولولا وجهك هذا المعشوق

يبرق

يشرق

فأقدم فى حضرته

طيبا وبخورا محروقا

لازال وجهك هذا الحلو المعشوق

لتفحم قلبى المحروق وانتهت الدنيا

يناير ١٩٨٤

(٤)
الهبوط إلى نهاية القرن

الحزن رفيقى

الواقع أننى لم أجد نفسى عبر ذلك كله بعيدا عما اعترانى من قلق وغربة شديدين، فإننى أستطيع فى هذه الفترة أن أرصد فى كتاباتى التى أستطعت استنقاذها أمامى، ومن أشعارى المتفاوتة وصداقاتى المهترئة وعلاقاتى الأسرية والعائلية غير المستقرة.. أستطيع أن أرصد شيئا من الغربة، أيقونة الحزن الأبدية فى تكوينى..

لقد سعيت هنا لرصد بعض ما يتحرك فى خيالى من نهايات القرن على اعتبار أن الهبوط إلى نهاية القرن العشرين كأن يمثل لى تباين المشاعر وتناثر الأحداث فى (سيمترية) ترمز للفوضى الدالة إلى الوجود الذى كنت احياه ومن ثم فإن الهبوط إلى نهاية القرن سيعقبه صعود آخر إلى الهاوية ' اى الهبوط إلى هذه المحطة الأخيرة للحياة حيث تتفاقم حالات الفراغ والكآبة الموحشة ودلالات الزهايمر الذى يزحف ببطء مع تهاويم تعيدنى لمنتصف القرن العشرين أكثر مما تحط بى إلى نهاية هذا القرن وبدايات القرن الجديد ..

وعلى هذا النحو ففى الوقت الذى كنت أسعى فيه للهبوط إلى نهاية القرن، كنت أتهيأ ـ باللاشعور – إلى الصعود إلى الهاوية ، وعلى هذا النحو فالارتباط بين الهبوط والصعود هنا يظل ارتباطا مشفرا دلالاته الرمزية فى اعماقى، اجهد كثيرا أن انقل بعضها وانا اقترب الآن من الستين بين عديمن المعوقات التى تحول بينى وبين التنبه بقدر كاف إلى الماضى أو السعى لهذا الماضى بأثر رجعى أو السعى منتبها إلى المنهجية فى السيرة إلى العود إلى الماضى بأوراقى التى أسعى إلى النقل منها خوفا من محطة العود بأثر رجعى معتمدا على الفائتة : الذاكرة ..

وأشهد انه لم يؤلمنى فى هذه الصفحات إلا هذه الفترة الأخيرة التى اعانى فيها من الهبوط المتوهم أو الصعود المتأكد .وهو ما أحاول التعبير عنه هنا بشكل غير مرتب بالقدر الكافى ..

ففى هذه الفترة ـ الأخيرة ـ وجدت بخط يدى هذه السطور" رغم مايقال من أن هناك علاقة متينة بين الخوف والانتماء فإننى أحس الآن بالقلق الشديد، أحس بالقلق وفى الوقت نفسه احس بالاغتراب .وكلما زاد القلق زاد الاغتراب وهى حالة مازلت اعيش فيها مع مرور الوقت.. " ورحت أجد

فى كلمات هذه الفترة حسا متبنيا مقولة جاءت من دخيلتى إننى بعد عقد أو عقدين من الزمان إذا قدر لى أن أعيش سوف اكون أكثر اغترابا وأكثر نفورا ليس من الذات وحسب وإنما من الآخرين ..

أردت أن اتمهل هنا أكثر لأحدد طبيعة الطريق الذى سأسير إليه طيلة الثمانينات والتسعينات من القرن العشرين ومع حركة الهبوط لنهاية هذا القرن للبحث عن ذاتى.

فى هذه الفترة عثرت فى كراساتى القديمة على عبارات كثيرة لخصت حركة التحول فى نهايات القرن أؤثر أن أدون منها اثنتين هما :

– "أن حبا أمكن أن ينتهى لم يكن يوما حبا صادقا " – أرسطو

– " اه ضقت بحالى بأكاذيبى ..ضقت

لو يلتف على عنقى احد الحبلين

حبل الصدق ...

أو حبل الصمت..

صلاح عبدالصبور

"الإبحار ..

وخلال هذا أستطيع أن اعاود بعض الأحداث فى الثمانينات لاعيد فى ضوئها تصوير بعض ما حدث لى وعشته من أحداث كنت أكثر حيرة فى بعضها من البعض الآخر وأكثر تأثرا من بعضها أكثر من بعضها الآخر ..

لا أريد أن اتمهل هنا على مواقفى الفكرية وتأثرى بكثير من رواد الكتابة والفكر مثل د.زكى نجيب محمود أو توفيق الحكيم أو يوسف ادريس وعبد الرحمن الشرقاوى، ومن العرب عرفت واقتبست إلى حد كبير من عبد الرحمن منيف وسعدى يوسف وادوارد سعيد ومحمود درويش.واقترابى منهم ليس فى مكاتبهم المعروفة فى الدور السادس بالأهرام وحسب، بل وخلال عبورى إلى منازلهم بشكل شخصى أو عبورى إلى افكارهم الخاصة بالالتقاء بهم لقاءات خاصة سواء بشكل مباشر أو خلال رسائل سوف أدون بعضها فيمابعد

المهم أن تعرفى على الكثير من مفكرى وكتاب منتصف القرن ونهاياته معرفة ندية إلى حد بعيد اثمر عدداً من الكتابات المهمة فى هذا الشأن غير أننى أرجىء التوقف عندهم الآن للوصول اليهم فى موضع آخر ..

بيد أننى أود الآن الإشارة إلى اشياء أكثر ذاتية مثل علاقاتى بالكثير من فتيات الجامعة حيث كنت ادرس، ثم هذه (الامريكية) التى تعرفت عليها بالقاهرة واستطعت الوصول معها إلى درجة عالية من العلاقات العاطفية، اذ كانت لغة التعارف بيننا هى الفرنسية، فقد كانت من ام فرنسية سهل هذا لى التعامل معها بالفرنسية، وكدت اغادر القاهرة معها إلى واشنطن لولا ترددى ورفضى مواصلة الحلم فى الساعات الأخيرة كما لا أحب أن اعود لاشير إلى شهرزاد التى تركت فىَّ أثرا استطاع الحدث الكبير فى الثمانينات أن يرجئه أو يبعده عنى كثيرا

وأقصد بهذا الحدث ارتباطى العاطفى بالفتاة التى أصبحت زوجتى بعد ذلك ..

وهو ارتباط بدا نابعا من حس رومانسى وعاطفى حاد اصبحت تابعا واسيرا له ..

كان على أن اتعامل مع أزمة أخرى لم تكن لتكن تخطر على بالى مع هذه الفتاة الأنيقة والتى تحمل من الشخصية الرائعة بقدر ما تحمل من الإرادة الصلبة بقدر ماتحمل قبل هذا وذاك قدرا هائلا من بكارة الجمال والأناقة ..

لم يمض وقت طويل منذ بداية الثمانينات حتى ارتبطت

بفاتن ارتباطا عاطفيا توج (بخطبة) استمرت عاما ثم ارتبطت بعدها برباط شرعى فقد تزوجتها، وكان على أن احلم ـ فى لجة السعادة التى لم أكن لأصدقها ـ بحياة تضيف إلى السعادة معها.. أردت الصعود بها إلى مكانة لائقة بى ككاتب بالأهرام ..

وعلى هذا النحو كنت مهيئا بعد أن عملت بالقسم الثقافى- أن اصبح كاتبا بالاهرام ومرتبطا بفتاة جميلة، وحسبت أننى حققت احلامى المستحيلة التى غابت منى أو غيبتها بفعل الواقع القاسى على وجدانى لسنوات ..

غير أننى وجدت نفسى فى مأزق يصعب علىّ نقله هنا لاستحالة ذلك .. كان علىَّ أن اواجه بعد الزواج مباشرة عيون الأهل وهى تسألُ عن الإنجاب لماذا غاب؟. ومن المسئول؟ إلى غيرذلك من الأسئلة التى يفرضها المجتمع على أبنائه أو أحبابه فيعكس هذا كله هزيمة قاسية داخل النفس البشرية ووجدتنى مع اصرار فتاتى أن تقاوم معى ولا تتركنى أبدا أكثر إصرارا على ألا أهزم ..

من أوراقى الصفراء فى هذ الوقت وجدت عبارات كانت تهيمن على تكوينى، ومواجهتى لهذا الواقع منْ مثل " قد يتحطم الإنسان لكنه لا يهزم " ولم اكن أعلم من قالها لكننى

وجدتها تنتشر فى كثير من أوراقى فى الثمانينات كما أن عبارة تردد معناها بين النبى محمد عليه الصلاة والسلام والنبى عيسى عليه السلام كانت تختصرمعانى الواقع الأليم الذى عشته فى سنوات الثمانينات من مثل :

"الحزن رفيقى ".و" قلبى حزين حتى الموت "

وكما أشرت فإن حاصل جمع الحزن والمقاومة الذاتية كان يجعلنى ابتسم للجميع، وكأن لاشىء هناك، وأكتب مقالات نارية واستمر فى العمل الأكاديمى فانتهى من دبلوم فى التاريخ الحديث بعنوان " المؤثرات الفكرية فى الثورة العرابية".

ظل قسم التاريخ حفيابى (وكان يحضره حينئذ الدكاترة : أحمد عزت عبد الكريم واحمد عبد الرحيم مصطفى وعبد الخالق لاشين وعبد العزيز نوار .. وغيرهم) حتى أستطعت الحصول على درجة الماجستير فى طه حسين والسياسة بين ثورتى ١٩١٩ و١٩٥٢ وانتهيت من الدكتوراه عن علاقة عبد الناصر بالمثقفين بين ١٩٤٥ ـ ١٩٧٠. وقمت بطبع عدد كبير من الكتابات النقدية بجانب التاريخية يمكن العود إليها فى السياق الأخير ..

بيد أننى وسط هذا كله كنت أسيرا من الداخل أنا

وزوجتى لحكم آخر من الواقع داخلنا وأسيرا من الخارج أنا وزوجتى لحكم آخر من الواقع حولنا ..

ولأن القضية كانت من الحساسية بحيث كأن من الصعب الحديث عنها أو الإبحار فيها من آن لآخر فقد تكثفت سحابات الحزن والالم بين اعماقنا أنا والزوجة التى لم اكن لاتعامل معها كزوجة وحسب وانما حبيبة بعثت من قلب إيزيس أوزوريس من جديد ..

ولأن هذه الفترة أثرت أثرا كبيرا فى أعماقى فسوف أنقل هنا بعض يوميات هذه الفترة لنرى كيف كان الوصول إلى نهايات القرن يمثل هبوطا إلى حالة من الحزن وخشية الإخفاق فى هذا المجتمع وهو هبوط واخفاق كاد يودى بحياتى لولا ارادتى التى استلهمتها من الله عز وجل .. من هذه اليوميات،

٣٠ أكتوبر ٨٢

الساعة جاوزت منتصف الليل بثلث ساعة تركت

زوجتى نائمة وحدها فى حجرة النوم وجئت

إلى هنا إلى مكتبى البعيد لأكتب..دفعنى القلق

دفعا إلى أن أتسلل إلى هذه الحجرة لأكتب

لأكتب ماذا وعن ماذا ..

أشياء كثيرة منذ تزوجنا هنا فبدأت مرحلة غريبة أخرى من حياتى لم يكن ليخطر على بالى أننى حين اقترن بفتاة واتزوج وارتبط لن يحدث هذا كله ..

لم أكن أعرف أننى بعد أن خيل إلىَّ أن انهى مراحل القلق والاغتراب الطويلة فى حياتى واقترن بهذه الفتاة فىَ بداية الثمانينات أننى سأدخل فى منعطف صعب وقاس إلى حد كبير ليس بالنسبة إلى فقط وإنما وهو مايؤلمنى أكثر – إلى هذه الزوجة الناعسة بعيدا عنى تغط فى نوم عميق ..

لم اكن اعلم أن مشكلة مثل غياب فترة الإنجاب والانتظار والسؤال والحيرة والشكوك ..الخ سوف يدفعنى دفعا إلى هذا الواقع الجديد ..

الواقع أن كل ماحدث أحدث فى أعماقى صدمة عنيفة تغاير

ماسبقها لكنها تزيد كثيرا، صدمة هزتنى كما لم

اعرف صدمة بهذا الرعب من قبل رغم كثرة الصدمات ..
والواضح أن هذه الزوجة كانت من الشجاعة بحيث
تمكنت من الصمود معى ضد الجميع، حتى الصمود
ضد نفسها كأنثى تشتاق إلى الطفل أو الدفء الجديد
إن مايؤلمنى الآن ليس ما اعيش فيه، وأعايشه انا
وحسب، وانما قبل هذا كله كل هذا الألم الذى
يزلزل كيانى كلما رأيتها، هذه الصبور الدموع
الجامدة فى عينيها، والشوق الجارف تجهد أن تدفع
به إلى يديها وهى تدفع بى دفعا للذهاب إلى المصيف
.. كم عرفت أماكن فى المعمورة أو إلى العجمى
وكم عرفت اماكن كثيرة قضينا فيها ليالينا المظلمة فى
الثغر..

الآن مازلت احيا فى هذه المحنة ورغم مضى قرابة شهر
ونصف الشهر على زواجى تزيد الأزمة كل مرة
وتتفاقم ونحن أنا وهى نتماسك ونحلم ونؤكد
اننا سننتهى منها تماما ..

وتستمر اليوميات المتشابهة فى كم من الورق الأصفر (الجورنال) لاتتوقف عن إبداء الحزن أو إخراج شحنة الألم، وعلى سبيل المثال اتمهل عند تاريخ آخر لانقل تحته باختصار اهم ما جاء :

٩ نوفمبر ١٩٨٤

منتصف الليل.. يوم سقيم آخر يوم سقيم سقيم سقيم..
أحلم منذ سنتين بالامن والامان والاحلام المزهرة
والراحة النفسية والطموح والامل..مازلت احلم
كل هذه الفترة بالعثور على الذات دون جدوى..
ها انا انسحب فى صمت من جانب هذه الزوجة
الرقيقة لالقى بنفسى وهمى بين أوراقى فى هذا
المكتب البعيد عن حجرة النوم اكتشفت منذ فترة
أن زوجتى حين أهم بالنهوض للخروج من
الحجرة تصطنع النوم، تبدو فى هيئة من نامت
منذ فترة كيلا تزيد آلامى، يالها من امرأة نبيلة
وأنثى قوية عظيمة.. لايبقى لدى غير الحلم، الحلم
وانا بين أوراقى، وهذا الظلام الثقيل يلف كل شىء

حولى، لا افعل غير التمنى أن تمر هذه (الحالة)
ليس من أجلى فقط ، وإنما من اجل هذه الأنثى الرقيقة
الانيقة حتى فى إخفاء قلقها عنى كيلا أزيد قلقا.. يارب

.. متي تحقق أحلامي ..

وأقاوم أن أنحى الأوراق الكثيرة الصفراء بعيدا عنى وانا
أكتب الآن فقد قضيت سنوات على هذه الحالة، ومع ذلك لم
يبق لدى غير القصور الذاتى لأحوله إلى عمل كتابة المقالات
الضافية.. الانتهاء من اطروحة الدكتوراه، الإنتهاء من أكثر
من دراسة ونشرها ..لا أعرف اهو هروب من هذا الواقع
المؤسسى أم هو ما تبقى لدى، ام هو تكوينى الذى يرفض
الهزيمة ..

لم ينته الأسى الشديد بانفراج الغمة بعد أن انجبت
بالفعل فقد كان يعاودنى من آن لآخر هذا الأسى فى كل
كتاباتى وفى كل رحلاتى فقد قدر لى فى ربع القرن الأخير
من القرن العشرين أن اذهب فى دعوات إلى اغلب دول العالم
ومن ثم تباينت كتاباتى من الدراسات إلى ادب الرحلة إلى
المسرح الشعرى كما نرى من قائمة(الببليوجرافيا) التى تمثل
أعمالى ..

كما أن دائرة العمل اتسعت لتشمل المسئول الأول فى (الاهرام الطبعة الدولية) ثم (الأهرام الطبعة العربية) فضلا عن القسم الثقافى بالأهرام اليومى بالقاهرة ..

واكتشفت رويدا رويدا انشغالى الشديد بكثافة ارتيادها وترقبى لكثير من الكتابات التى انشرها فى الدائرة العربية أو العالمية .. وكذلك أستطيع أن أرصد بهدوء انه مع اتساع دوائر العمل ودوائر الاهتمامات واتساع دوائر النجاح الفكرى والثقافى وحصولى على عديد من الدوائر.. هذا كله لم ينسنى (حالة) الذات المؤسينة دائما المجلوبة ربما على الحزن السرمدى القاتم ..

غير أن الخروج أكثر من المركز إلى هذه الدوائر البعيدة يحتم على التمهل عند مرحلة أخرى تصل بى إلى الهبوط إلى نهاية القرن العشرين ومن ثم محاولة إلى الهبوط إلى فعل آخر(صاعد) إلى بدايات القرن التإلى ـ الحادى والعشرين ـ وهو صعود كما أرى الآن إلى الهاوئية إلى خريف العمر ونهايات هذه الحياة بالنسبة إلى كاتب هذه السطور إما بأرتياد تضاريس الزهايمر وهو ارتياد أدفع إليه دفعا رغم كم الأدوية الكبيرة التى اتناولها من اجل هذه الذاكرة اللعينة أو بارتياد تضاريس الزمن الذى يصل بى متعجلا إلى هذه التضاريس الضبابية حيث تتحول الأحلام رويدا رويداً مع

انسحاب الواقع وغياب الآدميين وانسياب الزمن.. تتحول الأحلام إلى كوابيس بفعل التخثر الذى يلتهم كل ما هو واضح يقين ..حيث الهبوط إلى نهاية القرن ..

فأسعى إلى الصعود إلى القرن الحادى والعشرين قبل أن أخاطب صاحب الجوزاء بتضاريس الأيام والأعوام الباقية .

(٥)
الصعود إلى الهاوية

..اللهم آمن روعاتى

الآن اقترب من الستين.. وأنا الآن اكتشف أننى كلما دعوت أردد دعاء بعينه.. تزيد الأدعية أو تقل ولا يتغير هذا الدعاء أو ينقطع قط بما له من دلالة نفسية جاء فيه:

اللهم انى اعوذ بك من الهم والحزن واعوذ بك من..

واردد واشدد كثيرا وانا اضيف من دعاء اخر فى موضع آخر:

اللهم .. آمن روعاتى

وهذه الحالة (الروع) استعيرها من التراث حيث جاء الدعاء "اللهم استر عوراتى وآمن روعاتى" وكتب التراث ترى انها جمع «روعة» وهى المرة الواحدة من الروع أى الفزع (النهاية) وهو مانستعيد معه ماورد عن أنس انه : فزع أهل المدينة ليلة ... فتلقاهم رسول الله صلى الله عليه وآله وقد سبقهم وهو يقول : لن تراعوا :

والروع بهذا المعنى هو ما كنت اختزل به حالتى خاصة السنوات الأخيرة.

أى هذه السنوات التى ينتهى بها القرن ليبدأ قرن جديد .. وهى حالة آتية (من تكوينى) فى المقام الأول .. وهو مايفسر كيف كنت اجمع فى دخيلتى النقائض فى آن واحد، وأكثر ما فيها النقيض بين الأبيض والاسود، وهو ماكان يساعد عليه، أن حياتى لم تمض على وتيرة واحدة على وجه التقريب، وسوف أعود من جديد للسنوات الأخيرة من حياتى لاستعين على هذه الحالة بسرد بعض الأحداث التى كنت أمر بها ..

وكما قلت سأسعى لرصد هذه الحالة بدون الترتيب الصارم الذى التزم به فى حياتى فهذه الحالة إحدى سمات الواقع الذى أعيش فيه وأعايشه الآن..

وسوف يمر ذلك على المستويات المتماهية مع الذات، ومع العام بين الداخل والخارج ..

وقد عرفت بعض المؤثرات التى عمقت مفردات تكوينى فى هذه الفترة ..

كانت بدايات الثمانينات تحمل لى ألما ممتزجا بالفرح، والقضية أننى اقترنت بفتاة هى نموذج مثالى للجمال الهادىء ولم يمض وقت طويل حتى امتزجت حيرتى بعدم الإنجاب بكثير من المؤثرات على المستوى العلمى والفكرى، وقد اختلطت الأحداث فى تكوينى وسلوكى إلى الحد الذى أعادنى

إلى تكوينى الأول وهو : الحيرة والحزن والازدواجية مع نضج وصل إلى اقصاه على المستوى الفكرى سواء فى عالم الكتابة فى الصحف أو الكتب المتوالية أو فى الجامعة بعد أن حصلت على درجة الكتوراه أو الإلتقاء والافتراق الحاد مع عديد من مثقفينا ومفكرينا فى مصر أو خارجها بشكل عمق تكوينى الفكرى أكثر وهو ما ظهر فى التعبير المكتوب كما اشرت فى الصحف والكتب والمحاضرات - .. الخ ..

وفى هذا كله عرضت لى عدة أحداث كنت احس فيها أننى أصعد إلى الهاوية ..

ولأننى أحس الآن أن مشاهد السيرة الذاتية تمتزج بالسيرة الفكرية ويتماهى كل فى الآخر فإننى مضطر أن أعبر بسرعة هذا الصعود إلى الهاوية عارضا بعض الصور التى لا أستطيع الخلاص منها ومن أهمها أن هذه الحالة التى أشرت إليها من الحزن القاتم المرير التى كانت تسيطرعلى حياتى ومهما يكن الحدث الذى يسيطر علىّ، فتارة كانت هذه (الحالة) تستبد بى كثيرا فلو قلبت بين هذه الأوراق الصفراء الكثيرة التى بين يدى لعثرت ببساطة على كلمات وعبارات تفسر هذا الواقع أو صورا دلالية تعكس دخيلة الكاتب هنا ومن ذلك.

- كلمات جول ميشله عن نابليون من انه "كان على عجلة من أمره فى كل الأمور"

- كلمات صاحب هذه السطور مدونة على إحدى الأوراق «الدشت» تقول "لا يعرف لماذا طفا القلق بعنف على مخيلته وترقرق فى عينيه حينما نهض يهرول (السعى) بين (الصفا) و(المروة) تذكر عذاب هاجر وتذكر عذاب ذاته ;بحثا عن الماء والهواء بحثا عن السكون والسلام ;توقف أكثر من مرة ,ليكتشف ,انه ,لا يرى الطريق من سحابات الدموع...........

- وكلمات أخرى كانت تتكرر كثيرا بالفاظ ومعان كثيرة فى الأوراق الكثيرة بين يدى إلاّ وتأتى على هذا النحوالمتسائل الحائرلهذه الإزدواجية" نقرأ "هل هو رومانسى هل هو عقلانى هذه الازدواجية اللعينة..;

وربما ارتبطت بها هذه العبارة التى وجدتها تكتب كثيرا فى كراساتى القديمة والحديثة على السواء من كتاب قصص الإنبياء(عرائس المجالس) للثعالبي :

- قيل لنوح لما احتضر: كيف وجدت الدنيا؟.

قال: كبيت له بابان دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر.

وعلى هذا النحو كانت هذه الأفكار التى تسيطر على تكوينى والتى تعمقت رويدا رويدا من النشأة الفقيرة والكفاح الذاتى المضنى والرومانسية الدافقة وسنوات عبدالناصر فى حيرة الصبا فى التعليم الإبتدائى والإعدادى أو مرارة الشباب فى جيش عبدالناصر الذى عرفته خاصة سنوات الهزيمة ١٩٦٧ هائما فى الصحراء معانيا فى الطرق المغلقة أو صامدا تحت وابل النابالم والميراج سنوات الاستنزاف وما بعدها ..

وقد اسلمنى هذا كله لهذه الفترة التى تصعد بى الآن إلى الهاوية اقصد إلى السقوط فى براثن النهاية وقبل الوصول إلى هذه النهاية فلا يستطيع إنسان أيا كان تحديدها أستطيع أن أعود إلى أوراقى الكثيرة التى عثرت عليها قديمة بالية، ولأنه من الصعب أن اشير إلى الكثير منها فسوف اكتفى منها بيوميات تعكس هذا الواقع.. ربما.

١٤ يونيو ١٩٩٨

فى أحد صباحات يونيو وبالتحديد ١٤ يونيو فى السنوات الأخيرة من القرن العشرين ها انا استيقظ فى صباح لاكتشف أننى فى مصيف (المعمورة) بالاسكندرية كنت قطعت سنوات الشقاء لانجب فتى وفتاة ويبدو للقاصى

والدانى انى احـيـا بشط الاسـتـقـرار النفـسى.. لكن هـا أنا استيقظ هذا الصباح بشىء ما فى عقلى الباطن.. على مد البـصـر ارى صـيـحـات الأطفـال حـولى لاتنقطع على مـرمى البصر إلى البـحـر، ادركت بسرعة وانا اقاوم اليقظة الكاملة أننى احس الحزن الشديد وأدركت بسرعة فى الوقت نفسـه – أن هذا الحزن ليس هو الحزن المألوف الذى كنت احسـه بينى وبين نفـسـى وأردده من أن (الحـزن رفـيـقـى) وإنما حـدثت نفسى أن هذا الحزن الآن مـغـاير لما سبقـه، إنـه الحـزن الذى يدفع بى إلى هذه اليـقظة المرة من أن اليـوم هو ذكـرى ميلادى.. لقد ولدت فى هذا اليوم وهذا الشهر.

انه اليوم الذى امقته دائما كلما تذكرته ..

لقد جاوزت الخمسين.. قلتـها فى صـمت .. من يحمل كرة الأرض على قـرنيـة تسللت إلى الشـرفـة الأرحب فى الجـزء الشمـالى من المسكن الواسع ، .غافلت الجـمـيع القـيت نفسى على مقعد مواجه للبحرمن بعيد أستطيع الأن أن أرى هذا السـراب الذى يتـبـدى فيـه الشـاطىء من بعـيـد بينمـا الألوان الخضـراء لمئات من الورود والنبـاتات تمتد أمـامى لتنتشـر فى هذه المساحة الشاسعة.

هبطت الدموع من عينى فجـأة احسست بسخونة العبرات

ادركت أن مايحدث الآن هو دفقة الذكرى الأليمة البغيضة لهذا اليوم البعيد-١٤ يونيو - أتامل فيما مضى وفيما سيأتى ولا أستطيع كل عام من تجفيف هذه الدمعة التى تكون دائمة متوثبة وعلى عجل فى هذه اللحظة ..

لاحظت أن ابنتى الصغيرة تقترب منى وتحدثنى بفرح.. أخفيت وجى أخفيت دموعى خرجت من الشرفة دون أن تلاحظ شيئا هى أو زوجتى التى كانت تعبر الحجرة إلى مع الصغيرة واكتشفت أننى أقول لأحمد الصغير أن يذهب لأننى مشغول الآن واكتشفت أننى افعل ذلك كيلا يرى احد دموعى الساخنة دون مبرر ..

عادت إلى وحدتى وسكونى وأحزانى القديمة اكتشفت كما أفعل كل عام دون تنبه اننى أحس الألم المرير والحزن الدافق لفقدان عزيز اكتشف دائما أنه هو أنا .. يسيطر الحزن على كيانى بشكل غامض تذكرت أن حياتى هى برهة فى موجات الزمن تذكرت أن الملايين ذهبت فما جدوى أن أجلس الآن حزينا أخفى دموعى ' ولماذا الدموع أمام أسرة لم تعرف بعد هذه المشاعر الغامضة،

سمعت صوت زوجتى الحبيبة تنادى.. تجاهلت الصوت.

تجاهلت النداء وانا اكتشف دفقات اخرى من الدمع الغامض الحزين يملأ عيونى.

دهشتي هي لصمتي اقتربت مني حدقت في وجهي زادت دهشتها : أيه ما كل هذه الدموع وهنا .. وهي تشير إلى البحر ثم ماذا يحزنك وما كل هذه الدموع هه .. صمتت (أجفلت ثم تذكرت شيئا مهما) لعله عيد الميلاد ..أليس كذلك ..سألت وأجبت بسذاجة .. بل هو الميلاد!!.

راحت تنظر إلى برقة استبدلت بالدهشة ابتسامة عذبة لتخفف عني ولكنها لم تستطع أن تخفي الدهشة تماما ..ماذا ألم بي هيا بنا إلى البحر؟.

ذهبنا وعدنا حاولت الإغفاء قليلا استيقظت بعد دقائق من الحلم الغامض الغريب، ذهبت إلى الشرفة الممتدة إلى بعيد حاولت مقاومة الحزن والشجن..

مددت يدي إلى الصحف التي جئت بها اليوم من ميدان المحطة والاوراق التي حملتها معي سرا في أحد جيوب الشنطة السرية .. مددت يدي إلى صحيفة اللوموند.. حاولت أن أدفن هذه المشاعر الغريبة لصيف جديد دون جدوى.. حدثت نفسي : يالغرابتك أيها الإنسان كل هذه المشاعرالدفينة القاتمة في مصيف مع الأولاد .. لماذا لم أستطع الإجابة ..

وإلى هنا لم تنته الأوراق الصفراء وإنما امتلأت صفحات اخرى بالنازع العام فقد اكتشفت إنني لا أستطيع أن أعيش

فى احـزانى الخـاصــة بعـيـدا عن الحس العـام فـفـى أوراقى التـاليـة المدونة بالكثـيـر من الاسـتـطرادات وردود الأفـعـال على أحداث جديدة وقديمة

عبرت أوراقا كثيرة لأجد تاريخا آخر ومشـهدا آخر فى يوم آخر.

صباح ٢٠٠١/٧/١٩ :

استيقظت وانا احمل هموم الكون كله ليس هذا الحزن فى قلبى وحسب وانما هو مزيج من الضغط السيزيفى فى رأسى اللعين.

- يا لرأسى اللعين

هكذا كنت اردد بينى وبين نفـسى وانا انظرلمن حـولى شذرا أن يسمعنى احد وانا اضع يدى على رأسى ولا البث أن اغيب مع الجميع أو هكذا أسعى لاكون كذلك ..

لم أجد ما أفعله الآن غيرأن اذهب مع الزوجة إلى الطبيب طيلة الذهاب والعودة فى طريق الهرم كنت زائغ النظر ثقيل الخطو مع آلام شديدة اكتشف انها تسيطر على ساقى اليسرى كلما احسست بالحزن السرمدى أو الألم النفسى الذى أعانيه وحدا .

بعد أن عدت بزوجتى للبيت سعيت للخروج إلى جريدة الأهرام اكتشفت أن ساقى مازالت تؤلمنى(بتنميل ثقيل) اكتشفت إننى فجأة أغرق فى دموع ساخنة وضعت يدى اليمنى على عينى كيلا يلاحظ أحد من المارة هذه السذاجة أو الغرابة فى الطريق إلا أننى لم أستطع السير توقفت سمعت من يصيح بصوت يأتينى من ظلام بعيد أن أبتعد عن العربة التى تقترب منى لتداهمنى ..

مضيت فى نفس الطريق مازالت دموعى الساخنة تعاودنى وسط حرارة يوليو.. رحت انظر لمن حولى / ليس هذا هو الشعب المصرى الذى اعرفه هؤلاء اناس غرباء لماذا تساءلت واجبت .. هل لانها الملابسات الصعبة التى تمر بها الشعوب إن الشعب المصرى أكثر الشعوب الذى يعانى من الهزيمة والاحباط ثم الغلاء والتضييق ثم الضرائب التصاعدية والمنازل التنازلية (من نزول المنازل اى سقوطها وتهدمها بفعل الزمن).. إلى الكثير

ماذا هل أعانى ألم الذات أم أعانى ألم الآخرين ..

سألت نفسى ومضيت حائرا لم يحس أحد بى وكأننى غير كائن على هذا الكوكب فغدا سارحل ويظل الحال كما هو الحال .. !!!!

سرقوا الزيارة..!! عبرت بعض الأوراق القليلة لأجد أوراقا قليلة سقطت وهى رغم قلتها تركت آثارها العميقة فى كيانى ورحت اضع تفاصيلها فى كتاب (جسر الجمرات) (*) الذى نشر فى بدايات الألفية الثالثة لكننى هنا سأجتهد لأضع تفاصيل بعض أحداثها المريعة فى هذه اليوميات التى كتبتها فى جدة أثناء الذهاب إلى الأرض المقدسة وسوف أضع هذه الأوراق نقلا عما كتبته فى جدة بالفعل على النحو التالى :

ولعمق الألم فيها كانت تنتابنى من آن لآخر ,كلما ذكرت الحج أو جاء موسم الحج أو العمرة، أو تناهى إلى بالحديث أو القراءة ما يشير إلى بهذا الموسم..

ومن هذه الحالات التى تثير فىَّ هذا الحزن العميق ما هو جار الآن، وأنا أعيد مراجعة كتابى (جسر الجمرات) ,وقبل البدء بمافيه أغمد الحزن فى أظافره، فقد تذكرت قبل أن أصل إلى مكة كيف عانيت فى جدة معاناة قاتمة..

أتذكر هذا كله الآن وأنا بصدد مراجعة (البروفة).

خاصة أن حالتى الصحية كانت تقترب بى أكثر من حالتى الحزن والإحباط اللتين أعيش فيهما الآن..

فالآن هو صباح الخامس والعشرين من ديسمبر –

الخميس – في الخامسة والنصف صباحا، أحس بهذا الألم النفسى العاتى فى حين إننى أعانى عضويا ألما شديدا فى صدرى..

إننى منذ فترة ليست بالقريبة بدأت أحس بهذه الأعراض، ففى صدرى شيء يشبه الحساسية، أو هى الحساسية، اقتربت منها إلى حد كبير أثناء السنوات الماضية، وخاصة قرب منتصف التسعينات من القرن العشرين، كان الحصار الشديد يضرب أطنابه على العراق، وكان أصدقائى من الفقراء والمعوزين والشعراء والمعدمين يتفرقون ثكلى فى مدن العراق الذى فرض عليه الحصار بعنف (إمبريالى) لنهاية التاريخ التى هيأت لها الإدارة الأمريكية أولئك الكتبة الذين كانوا يعملون ـ كما نعلم ـ فى المراكز العلمية المنتشرة كالفطر هناك، التى تتحول إلى دراسات معمقة لتكوين استراتيجية (امريكية) تسعى للسيطرة على العالم.

أذكر أننى ذهبت لأكثر من مرة هذا الطريق الذى كان يمتد بين الأردن وبغداد عبر الصحارى القاحلة لفترة تزيد على الألف كيلو ،فى عربة عادية تشبه(الميكروباس) وتظل لقرابة خمس عشرة ساعة تسرع بنا بين الصقيع فى هذه الجبال..

وتعدد المرات التى كنت أذهب فيها وأنا أردد لنفسى، وحين أكتب بعض كتاباتى فى (الأهرام) أن (لابد من بغداد وإن طال السفر) ..

كأن التكرار والصحراء والصقيع تحالفوا على انفى ثم على صدرى لأعانى هذا البرد أو الصقيع اللعين الذى صحبنى مرة فى شتاء مدريد، ومرات فى شتاء باريس – فيما بعد – فإذا بى أعانى حالة تشبه الحساسية..

ها أنا أجلس الآن فى الصباح لايتنامى إلىَّ إلا أصوات الساعة البعيدة ،وصوت المنادى وهو يقيم الصلاة فى المسجد القريب ،وفى كل هذا أحس بما يشبه الاختناق فى صدرى..

آثار السنين الطويلة تتجمع رويدا رويدا..

الاختناق أو ما يشبه الاختناق من هذه الرحلات الرومانسية أو الجادة – حسب مايرى قارىء هذه السطور – لكنها كانت الساعات الطوال التى كنت أعيشها فى ربوع هذا العالم السيء الوغد الذى لم يكن ليبالى بأطفال أو نساء أو شيوخ..

تحالفت على الآن حالات من الاختناق أخذت أتجرع فى (نسكافيه) ساخن لاقلل هذه الحالة ،ويغرس هذا الحزن

الشديد فى احشائى وانا اراجع مادة السفر وكيف التقيت بوجوه الآتين من كل بقاع العالم إلى المدن المقدسة (الحجازية) فى حين يخترق ربوع العالم الإسلامى القوى الأمريكية الغاشمة وحلفاؤها – الذكرى المريرة مازالت تسيطر على.. غير أن ثمة ذكرى أخرى آتية ,ومتقدمة بعنف لتزيد درجة اختناقى، ودرجات حزنى الأسود، هى حالة (تذكرى) لساعة هبوطى من مطار جدة لأنطلق إلى الأرض المقدسة مع زوجتى ,ولا نملك من حطام الدنيا غير الرغبة الجارفة للزيارة..

الألم يحرق أحشائى وأنا أذكر قراءاتى الطويلة قبل أن أذهب إلى الزيارة ,ظللت طويلا أقرأ فى القرآن والأحاديث واجتهادات القدماء فى الكتب القديمة والحديثة عن الرحلات إلى هناك، عشت طويلا أقرأ للشافعى والكاسانى وابن قدامة والزيلعى وابن الهمام وابى داوود الطيالسى وابن حيان وابن كثير والهيثمى فضلا عن عدد كبير من المعاصرين أو الذين تعرفت على كتاباتهم فى القرنين الماضيين..

بيد أن هذا كله الآن فى هذه اللحظة التى أجلس فيها منفردا أمام الجهاز الشخصى لا يقلل قط من هذه الزيارة الذى دمى فيها قلبى – وزوجتى – كثيرا..

ويبدو أننى على طريق «علماء النفس» لابد من استعادة هذه الأحداث المؤلمة، لعل التذكر بشكل عار وواضح يخفف قليلا مما أعانيه.

وما علىَّ الآن غير أن أعود إلى هذه السطور التى سجلت فيها هول هذه الفترة مما كتبته وأنا أسجل كتابى (جسر الجمرات) وآثرت أن اقتطعها أو أحذفها منه حين دفعت بها إلى المطبعة لكونها تزخر بالذاتية المفرطة والمرتبطة بهذه (الحالة) من الحزن الشديد الذى لا يفارقنى.

سأنقل الآن هذه الصفحات القليلة التى سجلت هذه الفترة دون زيادة أو نقصان

....

ماكدت أهبط إلى مطار الملك عبد العزيز بجدة حتى كان يواجهنا حادث غريب ,لكنه ترك فى اثرا مريرا ظل يلازمنى طيلة ايام المناسك من مكة إلى المزدلفة وصولا إلى عرفات..

وقد يكون من المهم أن أشير إلى هذا الحادث قبل أن نعبر من جدة إلى مكة..

وكنت أعتقد أن العبور لن يأخذ أكثر من ساعتين ,فاذا هو يستمر هنا قرابة عشرة ايام.. انها الزيارة التى سرقت.

لقد كنت أخرج كل يوم من جدة إلى مكة أوإلى بعض مناطق الزيارات البعيدة النائية فى المملكة ,لكننى كنت أعود كل مساء إلى نفس المكان منتظرا رحلة الذهاب إلى عرفات لأداء المناسك.

كان هذا هو الحادث الاستثنائى الذى ترك آثاره العميقة على هذه الرحلة.. الحادث ترك فىَّ بشكل شخصى أثر أليما , أوثر أن أنقل بعض اليوميات التى كتبتها فى هذا الوقت عنه هنا :

٢٥ فبراير ٢٠٠١ ـ ٢ ذو الحجة ١٤٢١

هبطنا إلى مطار جدة لأرى حركة الطيران المتوالية ويلفح نسيم المدينة وجهى كانت جدة متبرجة بأضواء الليل.

حين هبطت مع زميل الرحلة ,وبحثنا طويلا معا عن المندوب الذى ينتظرنا دون جدوى ولم نجده ..

تركت المتاع ,وظللت أبحث عن مندوب الإعلام الخارجى فى كل مكان فى حجرات وردهات مطار جدة ,دون جدوى, وبعد ساعات ثلاث عثرت عليه فى إحدى الحجرات النائية, سلمته الجواز ,اطلعته على التأشيرة، وجدته يستجيب على الفور وهو يؤكد أنه بحث عنا كثيرا لكنه لم يستطع العثور علينا لأنه لا يعرفنا شخصيا ..

انتهينا من الإجراءات الأولى ,خرجنا من المطار بعربة وزارة الإعلام، توجهنا إلى فندق الميرديان حيث نقيم ـ هكذا أبلغنا مندوب وزارة الإعلام السعودى، وصلنا قرب الخامسة صباحا منهكين ..

كان وجه زوجتى الصامت المتسائل فى صمت يعذبنى, كنت أخشى عليها من مرض طارئ كان يمكن أن تصاب مع الجهد والغضب بحالة يمكن أن تودى بها ..

ثلاث ساعات فى المطار ,وساعتان للوصول إلى الفندق ,,

وما كدنا نستسلم للنعاس ,حتى صحوت فجأة على رنين تليفون.

فزعت

– نعم سيدى.

جاءنى الصوت من الجانب الآخر يخبرنى بأنه مدير الفندق قائلا لى :

– ليس لدينا تعليمات يا سيدى أن تكونوا فى الفندق ، هكذا أخبرتنى وزارة الإعلام.

– كيف إن معنا المندوب ثم إن معنا تأشيرة الوزارة ثم....

ورحت استمع إلى مدير الفندق وقد أصبت بحالة من

الإختلاط الذهنى . ذكرتنى (بحالة) كنت أعيش فيها طيلة عام ١٩٦٩ حين كنت فى الجيش المصرى.

كان هذا الشتاء من عام ١٩٦٩ أصعب الفصول أو الأيام التى عرفتها فى حياتى ,كانت الطائرات الإسرائيلية تتسلل دون أن تكتشف ذلك وسائل الدفا ع الجوى,وكثيرا ما وجدت فجأة - .. كثيرا ما وجدت الإنفجارات العالية ,والدخان المشتعل بعنف يتطاير فى كل مكان، وجثث الزملاء ترتفع لتتهاوى.

هذا الشتاء حتى الآن لم أنس رأسا وجمجمة عالية سقطت على وجهى أثناء الإنفجارات وفى اللحظة التالية سمعت سبابا من أحد الضباط الذى يوجه إلى نظرة حادة ويأمرنى أن أحمل هذه الساق إليه بعد أن كانت تمزقت وطارت بعيدا عنه أثر هذه الإنفجارات !!

كنت كثيرا ما تتفتح عيناى,فى الظلمة ,فأجتهد لابحث عن اسم المكان الذى اقيم فيه وهذا الظلام الدامس فى كل مكان من خيمة تتخفى فى حفرة عميقة من الصحراء الشرقية وكثيرا من كنت أجتهد كثيرا للبحث عن اسمى، وعن إسم هذا المكان الذى أوجد فيه ..

كنت فى هذا الوقت، وبعد فترات طويلة من الدمار لمواقعنا

المستسلمة ، ولأن وسائل الدفاع الجوى لم تحذرنا من تسللها إلينا ,أعيش فى هذه (الحالة) التى أعرف معها تشوش الفكر, وغياب الوعى الحاد ,وحالة تصل بى لفقدان (هويتى) فى هذا الدمار المتكرر

تذكرت هذا كله ,أو عشت هذا كله وأنا أستمع لصوت مدير الفندق.

الليل كله فى انتظار المندوب الذى غاب طويلا.

والأجناس من شتى العالم تأتى وتذهب.

وسؤال المسئولين فى المطار وهو سؤال مشوب بالألم الملح الذى يطاردنى.

ثم العودة مع مندوب الوزارة إلى هنا بعد كل هذا الوقت وكل فترة الإنتقال من القاهرة إلى جدة عبر ساعتين فوق السحاب .. ثم طرح السؤال ,الذى يطالبنى إن لم يهددنى , بترك الفندق فورا وإلا دفعت أكثر من خمسمائة ريال سعودى لصباح هذا اليوم فقط...!

مازلت أتذكر وجه زوجتى النائم ,الغائب بعيدا عنى فى هذه الحالة التى تكثفت بسرعة لتتملكنى.

إنها حالة من (الذهول) الحاد الذى وقعت فيه.

ماذا يحدث ولماذا؟.

كان جواز السفر الذى حصلت فيه من القاهرة على تأشيرة رسمية، وسطر مكتوب فى أعلاه(ضيف على وزارة الإعلام السعودى) ,ولزوجتى انها مرافقة لى، وفى نفس الضيافة.

لم يطرأ على ذهنى ,إلا فيما بعد ، كيف استطاع البعض الحصول على نفس التأشيرة ,والسباق بها لعمل الإجراءات واستجابة الجهات الأخرى لتلبية هذه الرغبة لاستخدام نفوذ إحدى الشخصيات الكبيرة.

هل سرقوا منا زيارة الأرض المقدسة .. هل هذا معقول هل يصل العبث إلى هذا الحد وجدت نفسى أردد هذا بينى وبين نفسى فيما بعد ، لكننى فى هذه الحالة وجدت نفسى أعود إلى حالتى المفاجئة ..

تشويش حاد فى ذهنى.

اختلاط المرئيات.

انسحاب السنوات القريبة من انتباهى.

انتظرت فترة طويلة بجانب سماعة الهاتف التى لم أستطع العودة بها إلى مكانها.

حين بدأت أستيقظ رويدا رويدا ,بدأت أفكر فيما أنا فيه الآن.

المطلوب منى إذن أن أغادر الفندق وإلا أدفع كل يوم أكثر من خمسمائة ريال سعودى.

القضية أننى كنت أتحسب الأمر ، فأرى أن كونى ضيفا على وزارة لن يكلفنى الكثير ، ومن ثم ، فإن حمل نقود كثيرة. أو فتح حساب كبير غير مجد .. وهل أكون فى حاجة لآلاف كثيرة وأنا فى (ضيافة) وزارة عربية !! وجدت نفسى فى (هضبة) نجد وحدى، وزوجتى تغيب فى استسلام من نال جزءا كبيرا من الإرهاق والحيرة.

إذن تطلب منى إدارة الفندق الدفع أو المغادرة على الفور.

جاءنى صوت الرنين ثانية ,استمعت إلى زميلى فى الرحلة .

قاومت الغياب النفسى والحزن طويلا.

أو الحزن والضياع النفسى طويلا.

أمنت على حديثه ، أن نذهب إلى أمانة الوزارة وهى فى "لوبى" الفندق قبل أن نعود لإدارة الفندق.

حاولت أن أفيق، فلابد من الخلاص من هذا الموقف المريب الصعب.

أخبرنى مندوب الوزارة أن الضيافة لآخرين جاءوا فيما بعد فى خطاب رسمى.. أما أنتما ـ جاء الحديث إلينا جافا ـ فلا يتعدى الأمر بعض التسهيلات، لابد من الذهاب على الفور!

– وما هى هذه التسهيلات سألت وجاءت الإجابة :

– فقط عربة أو عربات لتسهيل المهمة ,ومصورا أو عدة مصورين لإكمال الضيافة وفقط.

اكتشفت بينى وبين نفسى أن كل ما يحدث يمكن أن يفسد الزيارة ، كنت أفكر قبل أن آتى إلى هنا أنها زيارة عمل فى الظاهر ,وهى زيارة روحية وتأمل ووعى فى الباطن..

حاولت أن أستعيد حالة الصفو والوعى دون جدوى.

كنت مطالبا أن أذهب مع وزجتى إلى الصحراء العربية (ومعى زوجة لا تملك غير جواز سفر به نفس التأشيرة) ,فلا الوزارة تملك عبر موظفيها الصارمين إيجاد مكان لنا أو تسهيلات فعلية لهذه الرحلة.

صعدت ثانية لأقول بصوت منخفض لزوجتى ماذا حدث :. تركتها لتعد حاجياتنا للذهاب من هنا ,وإلى أين ,لا أعرف !! وحين هبطت إلى مدير الفندق وجدته يطالبنا بثمن الإقامة,

أستطعت أن أقنعه مع زميلى أننا لم نقم بعد وإننا سنغادر الفندق فورا ، وإننا .....

كأن المسئول عن الفندق هذه المرة من الرقة بحيث أنه هون علينا ,وتركنا لنجرى إتصالاتنا لتصحيح هذا الوضع .

حملنا أوراقنا وخرجنا من فندق الميرديان.

أية خدعة هذه.

بل أية (طعنة) ـ كما ردد زميلى ـ نالتنا .

ظللت لأيام أسأل عن المسئول عما حدث لنا ، وها أنا حتى الأن (بعد مضى سنوات)، أسأل عن هذا المسئول ضدنا ,ويبدو وهو أقرب للصواب والواقع العربى أن الفساد الذى تسلل إلى كل شئ ,تسلل إلى رحلتنا أيضا ,فأصابنا بهذه الحالة التى نعيش فيها الأن.

إنهم لا يترددون فى سرقة أى شئ ,إن الدين الحنيف لم يستطع أن يخفف من غلواء الفساد الذى زاد الآن فى عالمنا العربى كله ,فإذا بنا نعانى منه أو نراه يطل علينا من كل المؤسسات والوزارات والمواقف الكبرى ومن مواقف سادتنا وحكامنا من علاقتنا بإسرائيل .. ثم ألا نستطيع أن نلخص سبب هزيمتنا أمام إسرائيل منذ الأربعينات حتى الأن بأنها

لزيادة حجم الفساد والتراخى الذى أصبح سمة عامة فى حياتنا.

ألا نستطيع أن نفسر أسباب هزيمتنا أو هزائمنا لا السياسية فقط ، وإنما الاجتماعية والثقافية إلى كم الفساد المهول الذى يزيد والذى أصاب لفرط زيادته كل يوم يضيف إلى الهزائم النكسات والنكبات والتراجع إلى صف الهنود الحمر أو السمر فى عصر (العولمة).

إنه الفساد البشرى الذى ينخر فى المجتمعات العربية.

أخرجت نفسى من هذه التهويمات.

لقد سرقوا الزيارة الروحية !! حسن، لكن لابد أن نبحث عن مأوى أخر ،إقامة أخرى حتى نؤدى الفريضة ،ونرى خلالها ما يحدث فى هذا العام.

كان من المؤلم كثيرا أن تقول زوجتى لى بشجاعة وانكسار بصوت خفيض يحمل المرارة والحزن الشديد:

– هون عليك ،إن معى تذكرة السفر، وهى تحمل العودة يمكن أن أعود وأتركك لعملك.

– لم يكن الكلام المنطقى ليريحنى، فقد جئت لنفسى وأنا أتوق للزيارة ، غير أن زوجتى جاءت معى، وهى تحمل

ربما أكثر منى توقا للزيارة، فهى تطوى حسا دينيا عميقا وشفافية لا يملكها إلا من يهب روحه للعبادة والصفو الروحى.

لم أتوقف بينى وبين نفسى عن السؤال الآن:

- وماذا أفعل الآن.

لقد أسقط فى يدى..

لم تطل حيرتى كثيرا.. لقد أجريت اتصالات كثيرة بعدد كبير من مؤسساتنا المصرية فى جدة الصحفية أو الرسمية لكن أيا منهم لم يستطع فعل شئ مع وزارة الإعلام فقد بدا أن الأمر مدبر تدبيرا محكما.

هأنذا الآن فى أحد الفنادق التى لم أجد مناصا من الذهاب إليها

إنتهى الأمر بى إذن بالذهاب إلى أحد هذه الفنداق فى منطقة (باب مكة)

أجلس الأن فى الصباح الباكر ,أو بدقة فى وقت ارتفاع صوت المؤذن فى الفجر أفكر أكثر لا فيما كان وإنما فيما يجب أن أفعله الآن .

لم أستطع أن أخلص نفسى من فكرة (المؤامرة) ..

وعجبت لنفسى وحقا إن القضية هنا مجرد نزاع شخصى قام به البعض للاستيلاء على بعض ميزات هذه الرحلة ,غير أن ـ ورددت هذا لنفسى كثيرا فى صمت الفجر ـ هذا النزاع الشخصى يعكس نزاعا عاما,وإن من يقوم بسرقة رحلة روحية هو الذى يسرق سعادة الملايين والملايين فى العالم ممن لا يعرفون الواسطة أو يملكون المال أو يستحوذون على النفوذ ..

انه نزاع بدا شخصيا وتحول إلى نازع بدا يقينيا او واقعيا

حاولت أن أنام هذه الليلة ,دون جدوى..

تظاهرت بالنوم طويلا كيلا أوقظ زوجتى ,حتى نامت , وعدت أجلس فى جانب من المكان فى الضوء الخافت ,لأتغلب على مرارتى ,باستكمال قراءة هذه الرحلات التى جاءت قبلى إلى هذا المكان

حاولت أن أغفو للمرة الألف دون جدوى

لم يفدني كثيرا ما تجرعته من أقراص النوم أو التهدئة فى غفلة من زوجتى

لم يفدنى كثيرا أن قمت وأديت الصلاة ,فتكوينى اللعين لا يعود إلى منطقة السكون بهدوء قط.

قذفت بالكتاب الذى بين يدى إلى بعيد ,وحدقت فى هذا الحائط الأصفر الكابى

٣ مارس ٢٠٠١ ـ ٨ ذو الحجة ١٤٢١

لقرابة أسبوع مازلت فى(باب مكة) فى هذا المكان مع زوجتى ,ونحن نعانى الحيرة ,فإذا كنا قد دبرنا الإقامة ,فإن البعثة التى يجب أن نذهب معها إلى عرفات لا تعرفنا ولا نعرفها

مجرد العثور على من يوفر لى فى هذا التيه والصحراء الشاسعة المال أو الوسيلة ... أصبح كالسراب.

ماذا نفعل اذن !

هذا هو أسبوع آخر انفرط دون أن نجد حلا حقيقيا نستطيع به إكمال هذه الرحلة

فشلت محاولة تحويل عشرة دولارات من القاهرة إلى جدة عبر البنوك ,فقد ذهبنا لأكثر من مرة إلى البنك الأهلى السعودى والبنك البريطانى قبالته لتدبير إرسال مبلغ من القاهرة نستطيع به إكمال ما بدأناه دون جدوى ,كنا نسمع دائما عبارات من نوع :السوق السوداء ,نقص الدولار، افتقاد الريالات الكافية فى القاهرة ,اختفاء اليورو من البنوك المعروفة .. الخ.

حاولنا الاتصال ببعض المصادر المصرية فى هذا الميناء لتعييننا بشكل رسمى ,ولكن من يسأل عن مصر فى الغربة, وهو ما جعلنى أستعيد الفكرة التى قد طرحتها على أحد باحثى الدكتوراه حين سألنى ما الموضوع الذى يمكن العمل عليه فى قسم الاجتماع بجامعة عين شمس أن قلت له مباشرة " علاقة المصريين بعضهم ببعض فى الغربة "

الغربة تحيل إحساس المصرى بالمصرى إلى غياب لكل معانى المواطنة أو حتى الإنسانية.

ولدينا قصص كثيرة نعرفها مما يعانيه المصرى من أبناء جنسه ..

ولماذا المصرى؟!.

هذا سؤال ينتظر عالم اجتماع واع..

كان الوقت والفكر قد نالا منى كثيرا.

استيقظت أكثر من يوم فإذا بالآلام تزيد فى الساق ,وهى ألام تسيطر على ساقى من أسفل حتى أكاد لا أستطيع السير بها.

يحدث هذا دائما فى فترات التوتر الشديد .

استيقظت فى يوم آخر فإذا شفتاى وذقنى تصابان بتورم

حاد جدا ,لدرجة خفت أن أخرج لشراء حاجاتنا(كان التوتر أيضا قد ترك أثرا شديدا فى عقلى قبل محاولة النعاس أمس, وحين ابتلعت كميات كبيرة من المهدئات ,وحاولت أن أعيش لساعات فى (رحلة بين النوم والصحو) و (الحزن والمرارة) وكان هذا حالى دائما منذ جئت إلى هنا ,وحين استيقظت فى الصباح عثرت على هذا الورم الشاذ العنيف فى وجهى.

لقد تحول الورم ,بدءا من الشفتين ,إلى مرتفعات ومنحدرات بعيدة ...

إنه التوتر والخوف من المجهول.. فأنا هنا فى حيرة مع زوجتى منذ جئت من المطار ..

عدت أتذكر للمرة المليون هذا الشريط الحافل بالأحداث والقلق طيلة هذا الأسبوع.

....

هل هو الحزن الشخصى !

أم حزن الوطن ,حين أسرق فى وطنى ,أو من وطنى ..!

هل وصل حالنا إلى هذه الدرجة من الفساد !

مصر الآن تواجه أخطارا خارجية ,غير أنها تواجه فى الداخل أخطارا أكبر وأفدح !!

فساد مروع ،وغير مسئول ويسيطر على كل شئ فى الداخل وأمامنا عدو غادر لئيم ،ما يفعله للظهور علينا هو أن يتماسك ،رغم ان الصهاينة بها من العناصر والفئات ما لم نستطع احصاءه كما قال تعالى (تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى) أه ،وليس هذا أول تورم ،سبقته تورمات وآلام كثيرة فى جسمى وأطرافى.

إنه ثمن التوتر والحزن.

عرفت أن ثمة أملا يمكن التمسك به ،فهناك بعثة للحج فى القنصلية المصرية ،قال زميلى لابد أن نذهب غدا هناك.

لابد أن نجد حلا.

لابد أن تنتهى كل هذه الحيرة والغضب لئلا يضيق بى الحال أكثر ،فأصاب بالاعراض أكثر.

وفى جميع الحالات لن أعود.

لأحاول ان انصرف عن مبعث الألم والقلق فى داخلى والبحث عن مخرج.

لطالما تعرضت لمواقف عديدة ،لكن ،فى جميع الحالات لم انصرف قط عن (الإرادة).

إرادتى الشخصية وأنا أزعم بصلابتها لابد ان تنتصر

فى النهاية رغم كل علامات الضيق والتوتر والمرارة والألم والحزن... الخ..

لابد من الخروج من هذا كله.

لابد من الخروج من جدة.

الخروج من (باب) مكة إلى أيام التشريق.

ثم ،إلى حيث جسر الجمرات ...

وهو مايصل بى الى مشهد آخر..

❑❑❑

ورغم أن كتاباتى أو كتبى كانت تعكس مشاهد من السيرة الفكرية فمن الطبيعى أن ألاحظ أنها كانت فى المقام الأول تعكس فيضا ذاتيا يسيطر على كيانى فى المقام الاول فاذا بى لا أستطيع أن افرق بين الذات والعام (وهل يمكن التفريق بينهما) فانتهى من عمل لايمكن ان يعبر وحسب عن الوعى الفكرى وانما عن الفكر الكامن وراء هذا كله من النابع الذاتى وهو مايمكن معه ان اشير الى كتاباتى الأخيرة التى تمر بين الذات والعام ولااستطيع الخلاص من العامل الذاتى الباطنى فى المقام الاول وراء هذا النتاج او ذاك من مثل كتب :حقيقة الغرب الحملة الفرنسية والحملة الأمريكية-

مثقفون وجواسيس دراسة فى أزمة الخليج و الاوقاف على القدس ـ المراكز البحثية العربية ـ المستشرقون الجدد «دراسة فى المراكز البحثية الغربية» ـ الحوار العربى الاوروبى ـ مستقبل الفكر القومى العربى ـ اوروبا والغرب الرقابة المركزية على الانترنت فى العالم العربى ثم دراما المسرح الشعرى من مثل : الحصار والخروج من المدينة واللاعب ثم تحت الطبع وانا اكتب هذه السطور : عودة فرعون (عن مأساة نقل رمسيس الثانى فى قميص من الصلب الى الصحراء) والطريق الى النمر عن (البطل أحمد عبد العزيز) ثم من ادب الرحلة كل من «جسر الجمرات» و«مشرق ومغرب» ..إلى غير ذلك.

فكاتب هذه السطور يزعم ان العلاقة وثيقة بين السيرة الذاتية والسيرة الفكرية لايمكن الفصل بينهما بأية حال وعلى سبيل المثال فان التأمل عن أدب السيرة الذاتية الذى تجسد فى كتاب (جسر الجمرات) الذى كتب بعد زيارات مقدسة لارض الحجاز تكررت كثيرا دون التنبه الى ان الرحلة تظل صيغة لمسار فنى او صيغة لارتحال قصد به الابحار فى المكان والزمان وقبل هذا وذاك وهو مانشير إليه هنا ويهمنا فى المقام الاول ابحار فى الذات ..

نقول ابحار فى الذات وليس ارتحالا رمزيا.. إنه ارتحال حقيقى "بما ينطوى عليه من فهم واستيعاب ثم فرز وتعبير "

ان المكان رمز لما يعتمل داخل الذات وهو تعبير مباشر عن الهوية فى حالة التعبير والمسار النصى للكتابة.. الاكثر من هذا ان استخدام الضمير المباشر هنا إنما يظل محاولة للتعبير عن الموقف لاتواريا عنه بضمير الغائب ..

وهو مايمكن ان يؤكد على ان الرحلة الى التاريخ او الجغرافيا انما تمثل فى المقام الاول رحلة إلى الذات بمكان تعكسه هذه الذات من خصوصية وهوية معا ..

١١ سبتمبر ٢٠٠٣ :

ملاحظات.....

ما أسوأ هذه المشاعر التى أعيش فيها هذه الفترة التعسة من حياتى.. إنها تترى امامى فى كل شىء الآن وتعبر عنها احلامى بشكل مفزع، ,صحوت منذ اقل من نصف ساعة وانا فى حالة مرعبة من الفزع والرهبة والخوف ,كان الحلم اقرب الى الواقع او تفسيرا له.. حلم تكرر بأشكال كثيرة فى السنوات الأخيرة..

لم تكن الساعة قد اقتربت من منتصف ليل١١

أغسطس. ٢٠٠٣ وغبت فى هذا الهلع الذى أحسست به حين أحسست بألم خفيف فى فمى ,وضعت يدى على الجانب الأيمن من الوجه أحسست بشىء ثقيل بين يدى اكتشفت من هول اللحظة اننى أحمل الجانب الأيمن كله من الدروس الجانبية أحمل شيئا ثقيلا يمثل الجانب الأيمن من أسنانى او دروسى الجانبية، وقد تبدت فى لحظة - وأنا فى ضباب الحلم المفزع - وكانها جزء ضخم من عظام الاسنان كتلة واحدة أو - ويغير الإحساس فى لحظة - جزء ضخم كأنه محشو فى الجزء الأيمن من الوجه يتكون من الرمال المتجمدة التى فى طريقها لتتسرب فى رتابة أو شيئا نفسياً أشبه بهذا، إنه شىء أشبه بجبس أو شىء متماسك إلى حد ما يتهاوى بين يدى ليغيب الجزء الايمن تماما..

الفزع سيطر على وأنا اأاجه زوجتى وهى تلتقى بى فى طريقها لاكمال شىء من الشئون المنزلية، لمك أن تتنبه الى ما اعيش فيه او يتجسد فى يدى وفى قلبى ومضت الى حال سبيلها ,وتركتنى وانا اسقط فى ركن من البيت الغريب الذى اعرفه لاسقط حاملا الرعب فى قلبى ,وبين يديى التى تتكوم فى الجانب الأيمن من الوجه..

هل هو التعبير اللاشعورى بافتقاد شىء معين أو

الإحساس بالإحباط الشديد الذى أحياه..

استيقظت وأنا فى هذه الحالة التى اعيشها منذ سنوات..

أول أمس عرفت نفس الشعور ,بالفزع والرعب الشديدين وانا فى بحر او بحيرة ,واسعة لا اعرف نهاية لها ,وكلما حاولت الاقتراب من هذه الاعشاب الخضراء المترتبة للخلاص مما انا فيه سقطت فى هذه الموجات المتلاحقة التى تشدنى إلى مساحات شاسعة لا أعرف من أين جاءت ولا من أين أبحث عن جهد لاظل اتشبث بأى شىء يخرج بى من (حالة التأهب للسقوط فى يم عميق..

ما هذا؟.

إن هذا الحلم او الذى سبقه، يتكرر - ويتغير - لمئات المرات أثناء غيابى فى حالة النعاس أو حيرتى الممضة المرة فى حالة الصحو واليقظة..

حاولت ان استيقظ من هلع إلى هلع

ومن حالة اجد منتهاها المفزع فى أثناء النوم إلى الصحو, أو الصحو النائم فى لجة الرعب، أو - إذا شئت الاستطراد الغمض الحزين - (حالة اليقظة) التى يغلب عليها الحيرة الشديدة والرموز الحائرة..

أشياء كثيرة لا أستطيع التعبير عنها.

أو الكتابة فيها.

أو – حتى – بعد الكتابة – الاعتراف لانتهى منها.

انها(حالة) واحدة من الحزن المريع فى اليقظة والمنام..

١٣ سبتمبر٢٠٠٣

أغالب اليقظة طيلة الليل

أغالب حالة من اليقظة والحزن والشجن والألم كل لحظة أستيقظ بها لاغفو قليلا ثم أعود إلى اليقظة المفجعة من جديد.. لا أعرف ماذا يحدث لى، لا أطيق النوم لسنوات، بل قل لساعة او بعض ساعة نوما متقطعا ,ها انا الآن اركن الى المرقد لساعات ,تستمر١٢ ساعة. و ٢٤ ساعة يغلفها الألم ويغلب عليها الكوابيس المضجرة والآمال المحزنة..

أغالب النوم بل أغالب الصحو، بل أغالب الألم النفسى الرهيب الذى زاد علىَّ اكثر منذ فترة ليست قريبة..

حاولت أن أنزع جسدى من المرقد.

حاولت أن انهض، فساعات طويلة بإحباط وحزن فى هذا النوم الطويل أديا بى إلى (حالة) من الالم النفسى اللعين

وجدتنى - حينما تهيأت للصلاة - أردد الآية الكريمة (ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله) .

استعدت - وهل أنا فى حاجة لهذه الاستعادة - بواعث الضيق الشديد الذى يحيط بى من كل مكان.

إنه الضيق الذى أعانيه على المستوى الذاتى والقومى معا..

على المستوى الذاتى فأنا أعانى من سنوات هذا التضييق والحصار من كل ناحية ,من بين أبناء جلدتى، فى عملى فإننى سقطت نتيجة فرية كبرى، بل دسائس تحدث من سنوات ضدى، فى أسر مضايقتى، وعدم تركى أمارس عملى بمنطق التطور والتفوق والوقت.. فضلا عن أن علاقاتى العائلية أو الأخلاقية لا ترتقى بى إلى ما أريد.

لقد قضيت سنوات طويلة من حياتى أسعى للخروج من الحاجة والعوز فى عائلة فقيرة.

وقضيت سنوات وأنا أبحث عن (الحراك الاجتماعى) وأعمل له للخروج من طبقة اجتماعية إلى طبقة أعلى.

وقضيت سنوات طويلة وانا اسعى للخروج من قاع الجهل والأمية إلى سطح المعرفة والوعى بمايحدث حولى.

فى هذه الفترة الطويلة التي عرفتها منذ وعيت على الحياة وإلى يومنا هذا، لم يتوقف عقلى عن العمل ،ولم تتوقف جهودى عن الحركة ،وربما اكتسبت عدم النوم إلا لساعة او بعض ساعة طيلة اليوم من الاحساس المرهف القابع فى وجدانى المعذب

وقضيت سنوات طويلة اثناء ذلك فى مواجهة عدو صهيونى غادر جاء صبيحة ١٩٦٧ ليحاول أن يؤكد وجوده ويعمق استراتيجية صهيونية فى الارض العربية

المهم فى هذا كله. ،حين توجت بثمرة جهودى الطويلة وهمومى المستمرة وحزنى القاتم ليجنى الثمار ،أكتشفت انه لا ثمار، وأن من حولك لا يحبون لك أن تقترف خيرا، أو تحصل على نتاج جهدك.. لا يحبون لك النجاح، ليست هذه عقدة اضطهاد، فقد كفانى مجتمع الفاقة والعسر منذ طفولتى هذه المشاعر ،فصحوت فيها ووعيت بها جيدا.

إن الكثيرمن المعوقات تواجهنى الآن على المستوى الداخلى أو على المستوى الخارجى - المناخ الثقافى والفكرى الذى أتعامل معه وبه على المستوى الداخلى أو الخارجى اكتشفت اننى أعانى من نوع آخر من البشر يقفون أمامك ،لا يحبون لك التقدم ،ولا يسعدهم ان يروك تقوم بعمل مميز..

وأتذكر دائما صيحة أنطون سعادة قبل رحيله مباشرة: (حذار من يهود الداخل).

التضييق زاد على كثيرا..

وكأنها خطة ملعونة ،مادمت لا أملك وسائل التقدم إلا الأسرة، أو وسائل الفساد فإننى لا أستطيع تحقيق أى نجاح على المستوى الداخلى.

ومادمت لا أملك وسائل (اللعب) مع فرقاء المصالح فى المناخ الثقافى والسياسى حولى، فإننى لا أملك من وسائل (الشلة) مع رفقاء السوء ما أستطيع به أن أواصل..

ومايقال عن يهود الداخل يقال عن هؤلاء الفرقاء فى (الشلة) أو الرأسمالية الصاعدة فى (رجال الأعمال) فى وقت أصبح الوطن مهدداً فى جميع ألوان الطيف فيه بفعل العولمة، الهجمة الشرسة على الواقع العربى الثقافى والاجتماعى.

الداخل والخارج

داخل دائرة نشاطك الضيقة وخارجها فى المناخ العام...

١ مايو ٢٠٠٥

لا أعرف لماذا ،ربما عرفت لكننى لا أستطيع بلورة الأمور أكثر لأعرف، فإذا عرفت قلت وطأة تلك الكآبة التى تهاجمنى بشكل لم أعرفه من قبل.

فى فترات شبابى ,حينما تخلى عنى الجميع - وكان معى الله فقط.. لم احس هذه الكآبة السوداء قط عرفت الحزن والألم والرومانسية القاتمة.

وتتداعى الأمثلة والمواقف فى فضاء الذاكرة.

إننى لا أنسى قط أننى فى العشرينات ـ وقد كنت فى الجيش المصرى ,وقد انتقلت وحدتى العسكرية بعد الهجوم المستمر إلى الكيلو ١٣ أو ١٥ بعد أن كنت فى طريق الروبيكى بالسويس... لأ أنسى أننى كنت كثيرا ما أحمل سلاحى لأصعد إلى مكان (الخدمة) لأقف حارسا يقظا لساعات، كنت خلالها أهاجم بعنف من الحزن ,لكنه الحزن الرومانسى النبيل ,مما كان يدفعني لأردد نغمات حزينة لبعض المطربين المعاصرين لجيلى (لا تودعنى حبيبى) أو (جبار..) أو (بافكر فى اللى ناسينى).. إلخ ما لا أريد الإسهاب فيه الآن..

ومازلت أذكر أنه حين استمر قذف الفانتوم والميراج الإسرائيلى ـ والإمبريالى ـ للوحدة التى كنت فيها لخطورتها انتقلت بنا قيادة الجيش الى منطقة عسكرية قرب صحراء مصر الجديدة - ولا أنسى أننى كلما ذهبت فى (إجازة) قصيرة أو يوم طائر أعود فى الظلام دائما وأنا أردد مثل هذه الأغنيات القاتمة.

ولا أنسى اننى ظللت لعام - بعد عملية الانتشار - فى فترة الاستنزاف - عام ١٩٧١ - حين كنت أعود من إجازة رسمية أو غير رسمية كنت أعود من طريق السويس أو الكيلو ١٣ أو.. إلى آخر الصحراء لاتنتهى بعد تواصل القذف إلى انتشار وصل بنا إلى المناطق المأهولة إلى شارع نصحى بالزيتون لأسلك طرقا مظلمة طويلة للوصول الى وحدتى، وخلال هذه الفترات ,لم تتخل عنى تلك النغمات أو الأغنيات القاتمة الحزينة.

وأتذكر فتاة «الليالى» التى أصبحت تدرس فى هذا الوقت فى قسم الحضارة ـ بجامعة الاسكندرية ـ وقد حال بينى وبينها انتقالات الجيش وانتشاره بعد العصف به بطائرات عسكرية معادية.

أو أذكر تلك الفتاة الأمريكية (بعيدا عن عدائنا لأمريكا حينئذ) وقد قضيت معها شهورا رائعة هنا فى القاهرة ،وفى هذه الفترة كنت أتحدث معها بالفرنسية لغة الأم فى ولاية جورجيا، ولأننى بعد أن اتفقت معها على أن أحمل أمتعتى لأمضى معها إلى بلاد العم سام لم أستطع الوصول إلى المطار فى الوقت والزمان المحدد والذى كنا قد اتفقنا عليه.

لم أجد الجرأة لأفعل، لا أعرف لماذا؟.

أيضـا مـازلت أذكـر كـيف كنت أعـود فى سنوات أخـرى وتسـيطر على كلمـات وأطيـاف هذه الفتـاة المسـيحيـة ,التى قضيت معها أجمل سنوات حياتى ,وحين اتفقنا على كل شىء - بعد ان تهجر دينها - لم أجد لدى الجرأة لأفعل.

تخليت عنها.

لم أستطع أن أفعل ذلك ,فقد كانت حرب الاستنزاف تترك فى وجهى وجسدى اثارا عميقة.. لكن كل هذا خلف فىّ حزنا دفـينا و ,كنت اتعـامل مـعـه بالصـمت والحـزن والاغـانى الرومانسية القاتمة والاحلام التى ترفرف دائما وقت الفجر - وقـد كنت دائمـا أشـاهده - بعـيدا عنى لكنها لا تنفصل عن وجدانى الآن..

أتذكـر هذا كله الآن لأنه كـان يضـعنى فى هذا الحـزن السرمدى القاتم.

لكننى الآن أرى أننى جاوزت هذا الحزن السرمدى القاتم الى حزن آخر* اكثر قتامة ,ويتجسد فى الكآبة بل يتكاثف ويتزايد مع الوقت ,حتى أننى اتذكر منذ فترة ليست قريبة هذه الدراسات الغربية التى اطلعت عليها فعرفت ان مقدمات الزهايمر دائما تكون الكآبة..

وهنا أصمت

وهنا اتذكر هذه الكآبة القاتمة التى اعيش فيها لا اعرف لماذا كل هذا الحزن.. أحدث نفسى الآن ,ففى هذه السنوات التى بدأت بها القرن الحادى والعشرين ,اصبحت اكثر وعيا لحالة (الكآبة) السوداء هذه..

بل اخترقت سلوكى فإذا بى أنام لأيام كثيرة دون ان اعرف السبب ,فقط الحزن القاتم ,والصمت..

تذكرت هذا كله الآن وانا اعيش هذه الحالة وانا استقبل ساعات اليوم الاول من مايوه ٢٠٠ وانا اجلس قرب السادسة صباحا فى(صالة) بيتى وحيدا اللهم الا من هذا الجهاز الصغير ,والجميع حولى نائم وأنا الوحيد الساكن هنا فى صمت وحزن وقتامة ,هل انتهت هذه الكآبة قبل ان أرحل وأسرح فى الفضاء الأسود؟

هل أسافر إلى النمسا ـ بالفعل ـ فى نهاية هذا الشهر ـ بعد ان حاولت قنصلية النمسا هنا وإدارة الخارجية النمساوية هناك إعاقتى ,وهى الاعاقة التى يتفننون بها بعد عاصفة مانهاتن فى الغرب أيضا..

لا أعلم

إنما سحابة الكآبة تحط على بعنف فكدت أترك هذه

الاحرف ,وابعد باصابعى وعينى عن الجهاز الصغير.. واعودالى الوراء بظهرى التعب وقلبى التعس الحزين الحزين..

٤/٣ مايو ٢٠٠٥

ماهذا ما الذى يحدث لى ما كل هذا الحزن القائم القاتم الرهيب طيلة اليوم وانا اعانى هذا الشعور المرعب بالكآبة والحزن ,من البيت صباحا ثم إلى القنصلية النمساوية فالأهرام فالبيت واغضب من احمد ,الصغير ,فاحس بمرارة قاتمة تستولى على قلبى وتستبد بى ,فاسكن الى المرقد قليلا لاروح فى سبات النوم الحزين المتقلب المتقطع.. ما هذا لقد كنت هناك ,فى موجة الكآبة نائما منذ اقل من نصف ساعة ماذا حدث.؟.

إننى كلما أحسست بفيض الحزن وهو فوار دائما يجتاحنى هذاالشعور بالكآبة فانام نوما حزينا كئيبا اسود.. ماذا يحدث لى هذه الايام ,هذه السنوات الاخيرة من عمرى وانا اقترب من الستين..

لقد حزنت طيلة حياتى كثيرا ,لكنى لم اتوقف عند هذا الحزن السرمدى البغيض الساكن علىَّ ، وفى قلبى.

الثانية صباحا ,كل شىء ساكن حولى ,زوجتى راحت فى

سباتها بعد ان لاحظتُ الحالة التى أعيش فيها ,اولادى ينامون... اصوات غامضة من بعيد..

ماهذا السكون؟ ما هذا الألم في قلبي؟.

من أنا وماذا افعل فى هذا العالم وعن ماذا ابحث واى طموح اغرق فيه

هل حقا مازلت احلم بالتغيير فى بلادى. هل مازلت حيا قويا بالامل اريد الخلاص الجماعى وابحث عنه.

ماذا حدث لى؟ هل هى ظاهرة مرضية فردية؟.

تساؤلات اخرى بغيضة لا استطيع امامها شيئا..

....

فجر ٢٥ مايو ٢٠٠٥

هذه فترة حرجة معلقة من حياتى ,فقد امتدت فترة انتظر تأشيرة النمسا للسفر الى فيينا قرابة شهرين ,هناك مازالوا يماطلون فى منح (الفيزة) ,وهنا* فى سفارة النمسا ذكر لى احد الموظفين بوضوح شديد ان منح(فيزة) لاحد ابناء العالم الثالث!!.

هكذا!! لم يعد اليوم ميسرا كما كان..

ولم اعرف بالضبط لماذا يترددون فى منحى الفيزة حتى اليوم ،هل لبعض كتاباتى ام لاننى انتمى لهذا العالم الثالث أم لموقف عام من المثقفين العرب..

أسئلة كثيرة لا أجد لها إجابة يراسلنى د. ابراهيم الداقوقى من فيينا مؤكدا انهم متعمدون فى عدم منحى التاشيرة حتى اليوم ،منذ ايام ابلغ قنصل النمسا فى القاهرة احد كتابنا الكبار وقد عرف هذا التاخير ،فراح يحدثه تليفونيا مندهشا ..،ابلغ قنصل النمسا الكاتب الكبير ورئيس أكبر جريدة فرنسية بأن الأمر يطول لاعتبارات لا يعرفها.. وانهم هناك هم المسئولون.

– ولكنهم هناك لا يعرفون مايفعله هذا التاخير فى كاتب يذهب الى فيينا اول مرة من تأثير سلبى.. اليس كذلك.

راح القنصل النمساوى يرد:

– ولكن كان لهم عذرهم كل هذه الفترة فى ألاَّ يرسلوا التأشيرة.. كان لابد أن تأتى الدعوة الى كاتبكم بالالمانية(وليس بالعربية)..

– ولكنهم هم هناك الذين ارسلوها كذلك لالقاء محاضرته فى جامعة فيينا ،ومع ذلك ـ أضاف الصديق والمسئول

المصرى – جاءت أمس الدعوة بالألمانية من اعلى جهات فى وزارة الثقافية النمساوية ,ومع ذلك الحال كما هو عليه ,لم تأت التاشيرة.. ألا يبدو انها لن تأتى.

لا اعرف كيف اجاب قنصل النمسا..

لكنه بعد ايام اتصل بالمثقف العربى الكبير ليقول له ان الخارجية النمساوية اخبرتنى انه يجب ان تكون التاشيرة إلى فيينا فقط

فسأله:

– هل هذا يعنى ان الاتحاد الاوروبى يرفض منحه تأشيرة «الشن جن» التى تمنح مزايا كثيرة

– ربما – أجاب قنصل النمسا – لكنها سوف تاتى – كما عرفت – إلى فيينا فقط

ومع ذلك مرت أيام كثيرة دون أن تاتى الفيزة

دهشت جدا لموقف الاتحاد الأوروبى فى البداية وحكاية (الشن جن) ثم ها أنا الآن أعجب أكثر لموقف الحكومة فى فيينا التى تصرح إنها لن تمنح «الشن جن» ,ومع ذلك لا تمنح شيئا.

قلت لصديقى المسئول المصرى:

– هل يعنى هذا رفضا للذهاب الى فيينا.. أليس ذلك الرفض تجسد اكثر بعد عاصفة مانهاتن

– أليس في مايتعاملون به معنا، نحن الكتاب والمثقفين ـ ما يشير الى اننا نعامل مثل الزرقاوى في بلد مثل العراق فيه اكثر من١٥٠ الف جندى امريكى غير الحلفاء؟.

– هل نعامل نحن المثقفين او الكتاب او الصحفيين فى مصر العربية– واى بلد عربى آخر– من موقف اننا نمثل السلوك الارهابى؟..

وهل نحن حقا– اضفت– من يؤيد هذا السلوك الارهابى الامريكى الذى يدمر قيم اهلنا وعقائدهم ومساكنهم فى العراق؟.

وهل نحن الذين نعمل – كالأمريكيين فى العراق – على تسريب صور صدام وتهديد المقاومة؟.

وهل نحن الذين نغذى سياسة التطاول على الانسان فى سجون(أبوغريب) و(جوانتانامو).. وغيرهما كثير فى هذا العالم الامريكى؟.

وهل نحن الذى نشجع اختيار رئيس كردى فى العراق بقصد اشعال الفتنة بين طوائف بلد الرشيد؟.

أم هل نحن – لا أعلم – من يسعى لتشجيع واجراء انتخابات غامضة غربية تولى التصعيد الطائفى المسلح اهتمامها..

أم – ربما – نحن الذين نشجع القوى الامريكية الطاغية فى العراق بمساعدة أوروبية (ونمساوية بها) إلى تعقيد الأمور بالعراق.

وهنا كتب إلىّ من كتب، إنهم فى ڤيينا يريدون البحث أولا، يعرفون ما يكتبه قبل كل شىء، تذكرت أن د. الدافوقى أكد لى هذا أيضا وإن كانت دهشته أكبر منى..

وهنا صمت عند القوى الاوروبية التى مازالت تلعب– فى اغلبها– دورا مأساويا ضدنا فى عاصمة الرشيد، وخاصة هذه القوى البريطانية التى لعبت على الاقل منذ بدايات القرن الماضى دورا سلبيا فى احداث التقسيم (السايكس بيكو) بين أقطارنا العربية...صمت ,فمايؤلمنى اكثر ان احد الاصدقاء العرب – من أصل تركمانى – فى النمسا هو اشد الداعين لى للحضور الى النمسا ,وهو الذى يكتب لى من آن لآخر– عبر الإميل "E-Mail" – رسائله المشجعة حين أغضب، يغضب.. المؤسفة حين يبدو قنصل النمسا فى مصر غائبا ومرددا عبارات غائبة..

فلأر كل هذا الآن ,ولأتنبه ان نداء الفجر انطلق من نصف ساعة ,فلانهض لصلاة الفجر قبل ان اعود لاوراقى الثقافية والسياسية.. ولاترك قصة السفر الى النمسا - ولا اعرف هل ستتم ام لا - لموضع آخر ,او - ربما - لكتاب آخر.. فاوروبا هى التى بدأت منذ القرن الخامس عشر رحلاتها الجغرافية ومحاولاتها الاستعمارية قبل ان اقرأ وثيقة بالتركية مازالت في الوثائق المبعثرة ,ان القنصل الامريكى كان يسعى الى التمركز فى القدس فى القرن التاسع عشر او قبل ان ينتهى نصف هذا القرن ليتمدد في القدس لولا رفض(ولى النعم) فى القاهرة..

٢٩ مايو٢٠٠٤

حاولت ان استيقظ فى الصباح ,لكننى لم استطع ,ولم استطع ان اقاوم كل هذه الكآبة والحزن المريع فى اعماقى, ليس هناك سبب بعينه ,وانما احس فى السنوات الاخيرة تراكم هذا الحزن الاسود الكابى فى دخيلتى ,لأيام كثيرة, زادت.. استيقظ ,فلا استطيع حراكا من هذا الشعور الكابى المضطرم فى اعماقى ,لقد حاولت أن أنام فى وقت مبكر الى حد ما لاستيقظ فى هذا اليوم واستكمل الدراسة التى لم يبق على انجازها للجمعية المغربية حتى ساعات قليلة ,لابد ان

ارسل بها قبل ساعات ,وحاولت ان انام الفجر او بعده قليلا, ولم اذهب اليوم الى عملى بالاهرام ,لكننى منذ فترة مبكرة ,لم استطع القيام..

ثم حزن كاب عنيف يرزح ثقيلا فوق صدرى

حاولت النهوض اكثر من مرة ,اتجول والاسرة نائمة

حاولت ان اراود نفسى دون جدوى.. كنت اذهب بعد دقائق إلى غرفة النوم ,استلقى ,احاول ان اقاوم هذا الجبل من(الكآبة) فوق صدري ,اروح فى اغفاءات متقطعة بالكوابيس والرؤى المبهمة والخيالات المجنحة الغامضة.. أستيقظ.. أغضب.. إننى عدت إلى الاستيقاظ رغم ما فى الغفوة من جيوش الرؤى والكوابيس السوداء.

أتقلب أحاول النهوض ,لا استطع ولا أملك أن أجلس إلى اوراقى لاكتب او اقرأ لا أستطيع أن أقترب من جهاز الكومبيوتر لأرى(الايميل) الخاص بى وقد اخبرونى ان انتظر رسالة من النمسا بخصوص سفرى إلي هناك.

حدثت الأهرام لأتأكد من إعداد مقالى(الإصلاح السياسى.. وجوائز الدولة) عرفت؟ بعد كثير من التردد والانتظار أن مقالى سينشر صباح الأثنين..

حاولت أن أمارس عملى فى البحث.

عدت مرة اخرى الى السرير.

نهضت ثانية

تجولت وحيدا صامتا فى المظهر محروقا فى الباطن..

ما كل هذا الإحساس المضنى الرهيب إلى ماذا سيؤدى بى؟.. هل سينتهى الأمر بالإقدام على الخلاص من حياتى؟ أسئلة غريبة تجتاحنى وأنا شديد العزم قوى الإرادة لم أعهد فى ضعفا قط..

إذن ما هذه(الحالة) التى تحاول اقتلاع ايمانى من الارض

مايحدث لى ،وبى؟..

الى من أذهب..؟ اللهم ان لم يكن بك غضب على فلا ابالى

ولا حول ولا قوة الا بالله..

عن: الحس الديني..

ولم يكن تكوينى الدينى غير حاصل تكوينى الذاتى اكثر من تكوينى البيئى او التعليمى ،ومن المؤكد اننى تأثرت كثيرا بالبيئة ،فقد نشأت فى بيئة كان جدى لأمى بها رجلا متدينا شديد التدين ،يبدو بهيئته ولحيته المتوسطة أقرب الى العلماء

اكثر من(الدراوشة) ,كما كانت لديه مكتبة دينية ضخمة تطفو بها المجلات الدينية فى عصره ,خاصة مجلات الازهر..

غير ان المؤثر الاكبر فى تكوينى كان الميل العقلانى الخالص فى إطار العقيدة وليس خارجها..

كنت(راديكاليا) - إذا جاز التعبير - بشكل خالص فى اعتقادى ومعرفتى العلمية ,وكانت الفرصة سانحة لى - على المستوى الشخصى - أن أذهب إلى أى مكان فاجد مكتبة فاغرق فيها ,بكل مافيها ,من كتب دينية ,فقدر لى ان اقرأ تفسيرات القرآن الكريم فى فترة مبكرة ,كما اطلعت على هذه الكتب التى كانت تحتوى من(دلائل الخيرات) بالمعنى العام فى التراث اكثر من الوعى العقلى الدينى ,غير ان قراءاتى المتوالية ,واقترابى من كثيرمن الكتابات التى كانت تحمل وعيا عقليا حادا فى القرن العشرين والنصف الثانى من القرن التاسع عشر ,فضلا عن القراءات المتوالية لكتابات رجالات من امثال طه حسين وزكى نجيب محمود وقبلهم الشيخ محمد عبده حفرت فى تكوينى هذا الحس الدينى المشوب بالصوفية، المذوب فى العقلية الخالصة.. ففى حين كنت فى طفولتى اكتب هذه العبارة القرآنية فى دفاترى: «وقل رب زدنى علما» (١١٤ طه) تنبهت بعد ذلك الى آية اخرى كنت أرددها كثيرا (واتقوا

الله) (٢٨٢ البقرة) ويعلمكم الله مما يشير الى ارتباط العلم بالحس الدينى لدى بشكل تال للحس العقلى..

وإذا أردنا اختيار مثال واحد ليعكس اهتمامى الدينى او يحدد تكوينى اكثر ,فسوف يتمثل فى نظرتى إلى رحلة الحج..

فحين ذهبت إلى الحج فى نهاية القرن العشرين ,وترددت علي الحرمين قبل ذلك وبعده للعمرة مرات ,كان يصحبنى الرؤية العقلية مع الحس الروحى الشفيف..

كان على ان اتابع الرحلات السابقة على وأقرأها بتان ابحث فيها ومنها فى خرائط الذهاب والحضور ,اتعرف على المناخ السياسى والاجتماعى للعصر والازمات التى كانت تمر بها البلاد الإسلامية إبان هذه الحجة او تلك..

المهم كانت زياراتى للأراضى المقدسة بالحجاز لها طابع خاص جدا اختلف كثيرا عن غيرها(*).

وكان علىْ وان اطالع بدأب الزيارات السابقة وان افتح عينى الى آخرها وعقلى الى نهاية الوعى فيه لمايحدث حولنا فى عالم اصبحت الولايات المتحدة الامريكية قمة الرأسمالية والامبريالية البشعة..

وعلى هذا النحو ,رغم التوجه الروحى الخالص الى هناك,

فان الوعى العقلى الخالص لم يفارقنى ،فالرحلة كانت زاخرة بالحس الروحى والوعى العقلى معا..

لم تكن المشاهد لتمر على دون أن أراها وإنما كنت واعيا قبل ان اذهب لطبيعة العصر ،ومن ثم ،لم استطع- لم استطع- ان اخلص قط مما يدور حولنا او ضدنا ،وحينما كنت اجد العديد من التجمعات الأفغانية او مسلمى جنوب شرق اسيا او شرق اوروبا يبكون كثيرا كنت اردد الاية الكريمة:(ان تنصروا الله ينصركم) (٧ محمد)..

ولهذا فإننى اتذكر جيدا اننى اخذت على عاتقى ،فى اوقات الفراغ من الصلاة والتبتل طيلة اليوم وحينما كنت اتوجه الى سريرى لانام ،لم اكن - كعادتى - لا أنام ومن ثم، كنت احمل (القرآن الكريم) واعيد قراءته، بوعى شديد جدا، وكأننى أقرؤه لاول مرة ،واذكر اننى بين الصلوات كنت لا ابارح هذه المكتبة الضخمة التى كانت قرب باب عمر..

ومن هنا كنت قريبا من زيارات سابقة من مثل زيارة الشيخ طنطاوى جوهرى صاحب كتاب (تفسير الجواهر) الذى كتبه عقب حج عام ١٣٥٢/١٩٣٥ وربما حاولت ان اقترب من رحلة د. محمد حسين هيكل فى رحلته عام١٩٣٥ وربما كنت قريبا من كتاب عبد الوهاب عزام (رحلات عزام)

عام ١٩٥٦.

وربما كنت قريبا من محمد كامل حتة، فقد فعلت فعلته, تكررت زياراتى الى الحجاز ,ومن ثم ,كنت كل مرة اذهب مسلحا بما عرفته دينيا على مستوى الرحلات السابقة او القراءات الدينية ,ومن ثم رأيت البلاد المقدسة واماكنها التاريخية بعين اردت لها ان تكون تسجيلية ,ليس تسجيلا فوتوغرافيا وإنما تسجيلا معرفيا بشكل كاد يكون متعمدا او بشكل دفعنى إليه مارأيت من الخارج بشكل افزعني ,فحين خرجت من الكعبة فى احدى المرات بعد الدوران حولها سبع مرات والاسراع والهرولة بين الصفا والمروة سبع مرات أقول حين خرجت من هذا العالم الدينى الخالص، فاذا بى أمام تلة مرتفعة تستريح عليها مساحة ضخمة من محلات الماكدونالد.. وقد سجلت فزعى – بالفعل – من هذا وغيره فى كتاب تحت النشر الآن بعنوان (جسر الجمرات)..

١٤ يوليو ٢٠٠٦م

ها أنا أحاول أن أنقل شيئا من خيبات هذا النهار الذى ولى منذ ساعات أربع، وها انا احاول ايها الجوزاء استعادة بعض احداث اليوم.وانا اجهد ان يكون صديقى الالمانى A.Alzheimer لويس الزهايمر الذى راح يرصد هذه

التغييرات السرمدية المرعبة فى نسيج المخ وقد سعيت ان يكون صديقى ولا اغالب كثيرا فى اتخاذ موقف عدائى ضده..

صحيح ان عدائى لم يكن على مستوى ما حاول ايجازه فى ما اسعى لايثاره الآن .

(٦)
ماذا أيها الجوزاء !!

لنخرج إلى هذا الراهن..

صحوت فى اليوم ١٣ فاذا انا فى حالة تتكرر كثيرا من الحزن القاتم القائم الرابض فى اعماق قلبى.. حزن سعيت لادفنه فى الفترة الاخيرة فى استعادة بعض ايامى الفانية او الضغط على مراكز التفكير بعمل جديد فأغيب فى دراسة عن (الفضاء التخيلى) الرقابة المركزية الأمريكية على الانترنت فى العالم العربى وكأننى بالقفز إلى هذا الفضاء وانا آت من جيل سابق يعوضنى عن الاحساس القاتم بالحزن فاشغل عنه ..

صحوت هذا الصباح وأنا أحاول أن ألملم بقايا الحزن التى لم تختف قط من وجدانى صعدت إلى ابنى لاجده يجلس امام الشاشة الاليكترونية ويشغل نفسه كثيرا بمرئيات لم نكن لنعرفها فى عصرنا.. عبثت فى احد الادراج وقع فى يدى عدد من القصائد التى كانت رد فعل الواقع المؤلم الذى عشته فى نهاية الستينات وصولا إلى عقد السبعينات.. عبثت ببعض هذه الاوراق اخترت ان احمل بعضها لاغادر المنزل مع ثقل قلبى وأنا أتمتم بعضا من هذاالدعاء الذى لم أغفله قط فى حياتى :

ـ اللهم إنى أعـوذ بك من الـهم والحـزن، وأعـوذ بك من العـجـز والكسل، واعـوذ بك مـن الجبن والبـخل، وأعـوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال.

ظللت طيلة الطريق احـاول ان اردده بينى وبين نفـسى واحـاول بـه ان انفض مما يعلق بخـاطرى ووجـدانى من حـالة كـابيـة يتـراكم نسيـجـهـا القـاتم على وجـدانى فى السنوات الأخـيرة بل وتزاد كـثـافـة فى الأشـهر الأخـيـرة حتى اننى اصـبـحت اتناول بعض هذه المسكنات والمنومـات بشكل لم اعـهده وبشكل اصـر على الاسـتـمـرار على إدمـانهـا رغم أننى أعـرف ان الإدمـان يفـقـد تاثيـره مع الوقت وتتـبـقى القـتـامـة وتزداد..

حـاولت ان اعـبث بما بيـدى طيلة الطريق إلى الأهـرام وقـعت فى يدى هـذه القـصـيـدة التى تحـمل عنوان(لوحـات) حـاولت ان اضـعـهـا تحت الأوراق الأخـرى لاسـتـعـيـد بعض احداث اليوم مايجب ان افعله فى هذا اليوم شـغلت طويلا بالجريدة فى الصـحف العـربية والفرنسيـة دهشت للهاتف الذى جـاءنى من شـاعـر سـعودى يزور مصـر (باشـراحـيل) تذكـرت هذه الدراسـة التى شـغلت بهـا لفـتـرة عن (الادب السعودى – تجليات العولمة فى شـعر شـاعـر سعودى) هتف إلى أنه يريد أن يرانى لأنه سيسافر بعد ساعات ..

قمت بتثاقل وأنا أحمل أوراقى طرحت يدى الهائمة عدة اوراق على ارض المكتب.. وانا المم اوراقى وقعت فى يدى هذه القصيدة مرة اخرى (لوحات) حملتها وكاننى اعرف (كل) مافيها منذ اكثر من ربع قرن فلم يختلف كثيرا داخل القصيدة عن خارجها، طويت القصيدة بسرعة ونهضت إلى (شيراتون القاهرة) التقيت بعدد كبير من الكتاب والمثقفين ومن اجناس شتى فى حضور الشاعر السعودى، لم يمض وقت طويل حتى كنت فى طريق العودة ومعى بروفات هذا الكتاب الجديد الذى اكتشفت ان الناشر حذف منه الكثير ليصبح كتابا (محددا) بمايريد الناشر ان يخرجه حسب (التقنية) غير المكلفة التى حرض عليها كثيرا فقد اكتشفت انه تم حذف فصل كامل بعنوان (الفصل الخامس العروبة .. والوعى بالمستقبل ـ الدلالة) بل تم حذف البيان الامريكى المرفق ايضا بعنوان :

What We're Fighting For: A Letter from America

(c) February 2002, Institute for American Values

حملت الـ «سى دى» إلى المنزل بعد أن وعدت الشاعر بالنظر فى الطبع مع هذا الناشر بشكل يليق بنا ..اكتشفت أن فى الطريق فى الخروج من باب الفندق هناك تمثال عال

لطه حسين فى هذا الميدان امام "شيراتون القاهرة" حيث كنت مع كل هؤلاء وقفت دهشا امام هذا التمثال تمثال طه حسين وقد وضعه النحات عاليا قليلا نحيفا كثيرا فى هذا الفضاء المترامى حوله الزاخر بمئات العربات والسيارات الساخر بكل مافيه من اتساع عربى وغربى ضخم بطه حسين العبقرى العظيم فى التاريخ وقد وقف وحيدا ضعيفا نحيفا وحزينا بالقطع امام هذا كله حاولت ان اقاوم الكآبة التى طاردتنى بعنف بالاضافة الى الاجهاد الحاد الذى شعرت به لكونى احمل الكثير من الكتب المهمة التى حصلت عليها اليوم نظرت الى طه حسين فى صمت وانسحبت بهدوء ابحث عن أى وسيلة تصل بى الى البيت..

اقتربت من البيت وانا اقاوم الكآبة الحادة التى عاودتنى من جديد جلست إلى زوجتى التى تركتها بعد قليل لتنام لإجهاد عضلة القلب (المرض الذى أصيبت به أخيرا وخلف لنا أحزانا جمة..) حاولت التحدث مع هند صغيرتى الرقيقة رغم اجهادى الشديد حاولت ان استمر فى تقليب اوراقى القديمة كان اليوم الجديد قد جاء.. الجمعة ـ ساعات أربع مضت حين تنامى إلى الآن آذان الفجر صعدت مرة أخرى إلى مكتبى (بالمكتبة) حين رآنى الابن حمل أمتعته وهرب

بسرعة فهو يعرف انني حين اجلس الى هذا الفضاء التخيلى أشغل فيه وبه عن اى شئ، واذا كان ذلك لايمهله ليمارس هوايات جيله التحميل والاشتراك فى النوادى والبلوجزات والافلام الغربية.. فقد كان من الطبيعي ان يحمل اوراقه ويذهب بسرعة ..

ذهب الصغير .. أخذت أقلب فى اوراقى لأعثر بدهشة على (لوحات) عنوان القصيدة التى سجلتها فى نهاية السبعينات انها تشير الى مكان بعينه (حين جلست فى مرسم فنان..) وتضيف زمانا بعينه (أحد أيام أكتوبر١٩٧٩) فتعكس (حالة) معينة استدعت بعنف طيف الذكرى فى هذه الفترة حين كنت أتهيأ للتعرف أكثر على طه حسين، أذكر اننى وقتها حملت (كل) ما كتب طه حسين، وجلست بها فى مقهى قديم خال فى اول شارع شبرا، ولم انتقل منه الا الى جروبى طلعت حرب لاعود اليه مرة اخرى بنفس الكتب التى قضى طه حسين حياته يمليها ..

لا اعرف ما هى هذه العلاقة الصامتةالتى كانت بينى وبين طه حسين، حتى أنه لم يمض عام أو بعض عام حتى كنت أسجل درجة الماجستير عن طه حسين بالجامعة وأحصل به وعنه على هذه الدرجة وسط جشد عات من المثقفين

والمتربصين بطه حسين دائما..

لكن ما الذى استدعى كل هذا الى خاطرى اليوم؟ ..

هل هو هذا التمثال النحيل الضعيف العبقرى في ميدان عام؟.

أم كلمات متباينة المت بى فى الصباح وأنا أقلب أوراقى لاعثر فيها على رموز لوحات حاولت ان استعيد ما دفعتنى إليه وقتها ..

دخلت إلى المرسم كما رأيت بعين الخيال الواقع وظللت فى هذا المرسم اقرأ لوحات طه او (طاهر) حسين قبل ان تستعيد لدى اهازيج حزينة او بالتحديد(سوداء) حين حاولت ان اعبر عنها وجدتنى اعبر عنها منذ اكثر من ربع قرن وكأن العامل المشترك بين (كل) هذه السنوات هو القتامة فى هذه اللوحات التى تنتقل بى من احياء فقيرة خلف سور الأزبكية لاحد المقاهى فى حى شبرا أو التسمر لساعات فى (جروبى) (نصف البلد) وأنا أرفض ان اعود لحالتى الطبيعية الا بعد ان اقرأ كل ما كتب او كتب عنه هذا العميد ..

وتوالى لوحاته التى أغرتنى أن أحاول أن أستعيدها وأنا مشغول بكتابة هذه الخواطر.

وقد يكون من المهم أن أثبتها هنا كما كتبتها فى هذا الزمان البعيد فهى تعكس - بشكل ما ـ حالتى الآن ويبدو أنها تعكس بشكل مؤكد حالتى التى تتماهى مع حالات كثيرة وتغرق فى تفاصيل غزيرة لكنها لاتفقد هذه اللوحات أبدا ..

حملت القصيدة من أوراقها الصفراء الباهتة الى هنا أنها تحمل عنوانا دالا (لوحات) وها انا انقلها بالحرف دون التمهل عند بعض الاخطاء الزمنية او المعرفية كتبت فى هذا الشتاء من هذا العام هذه المقاطع فجر٢٣نوفمبر١٩٧٩:

لوحات ..

" حين جلست فى مرسم فنان

أحد

أيام أكتوبر ١٩٧٩ "

حين جلست

فى مرسم

هومت..علوت على القمة

وعرفت الفنان

وهمومه

لملمت الألوان..

وعرفت الأبيض والأخضر والأصفر

وعرفت الأحمر
لكن لم أعرف
إلا الآن
أن الاسود..
كان اللون السيد

□□□

أهلا
حيانى الفنان واغفى فى قاع المقعد
رحت اذوب اذوب
فى صمت المرسم
أذوى بين خطوط تتلاحم
"فانتازيا" الاحزان.
طه سلامة
طه حسين
خدود مسحوبة
تحمل اصرار(الايام)
وليال طويلة
عملا ق عميد .. ووزارة وعميد
لكن بسمته الحارة كانت

.....

الجنة تحوى "الاشواك"..الشوق

والشجرة تخفى آيات "البؤس"

والنظارة

آه

أدركت بان الاسود

فى اليوم الاول كان

واليوم السادس

واليوم الاسود

واليوم السابع ..

□□□

وبكيته

هذى وجنات مصرية

قديمة

كمثال" الكاتب"

فى اللوفر

لايبدو منه غير صلابة

وقتامة

لايبدو فيه غيرصلابة هذا الصخر الممزوج بآهات مطفاة

للمصرى الجالس فى اللوفر
ياعجب
مصرى فى لون الطين
وشمس الوادى القطنية
يهتف " مصر للمصريين"
فى زمن لايعرف .. غير السكين
فى اللوفر
ياعجبا
وادرت النظر اليه كى لا
يعلو فى وجه ملامح لطفى: السيد
الصنديد الجامد
ما أغربه هذا اللون الاسود
اللون الاسود كان
هو اللون السيد



وأدرت النظرات
حملقت بعيدا فى هذا التيه الممدود
تيه الكلمات
والالوان المسمطة الحيرى فى هذا الوجه المهموم

فى صمت "أبى الهول"
كم سنوات لم يعرف فيها الأمن هناك ..
لم يعرف
برلين
باريس ولندن..
كل العالم قد عرف
المصرى القادم من قاع الوادى
لفحته شمس حزيران
أضنته دموع الاولاد
أشقاه معنى غامض ممدود سادر
أشقاه معنى أن يقتل إنسان
أن يقتل انسان الانسان
ويبيد ..
أشقاه صراع الإخوة
والأحزاب
عينانا التقتا لحظة
لمحت فى ومضة
كل الألوان الطيفية فى وجه " فريد "
لكن من بين الالوان السبعة

أدركت ان الاسود
لون الذروة والقاع
والأيام السبعة
......

ماذا أيها الجوزاء ها انت تستعيد انفاسك وصوت المؤذن من بعيد يقيم الصلاة لابد ان اغلق المرسم اذن واحمل اللوحات بعيدا واسجل عنها بعض الرموز التى جاءت الى او جئت اليهاالان .. ايها الجوزاء كم انت غريب فعلا فى مملكة الاشقياء ..

لاظلم هذا الفضاء التخيلى واذهب بعيدا عن هذا كله الان فالساعة تقترب من الخامسة صباح هذا اليو م ..

٢٩ اغسطس ٢٠٠٦

ماذا ايها الجوزاء ها نحن الان قبل الفجر بقليل امام الفضاء التخيلى اسعى لاثبت شيئا علق بذهنى من أيام ولم استطع الخلاص منه، فقد تهيأت الدولة لنقل رمسيس الثانى من مكانه في باب الحديد او الميدان الذى تسمى باسمه ورغم كثافة الدعاية الرسمية لهذا النقل على أنه موقف تاريخى إيجابى فإن الرأى العام خاصة الرأى العام الواعى كان مدركا شديد الادراك لخطورة هذا النقل وحمل رمسيس

الثـانى من الميدان الذى نقل إليـه عـام ١٩٥٤ فـتـرة الثـورة الأولى.. إلى مكان مـجهول/ مكانـه فى الصحراء لايعرف عنه احـد شـيـئـا رغم التـذرع بان النقل يعـود الى الحـفـاظ على التمثال من التلوث .. الخ

حـزنت بشكل شـخـصى لهذا النقل وكنت مشـغولا اشـد الانشغـال بمأساة البطل أحمد عبد العزيز وعدت الى اوراقى لاحمل مذكراته والكتابات الكثيرة التى كتبت عنه والمصير المجهول الدامى (الغامض) الذى انتهى إليه.

غيـر أننى فى الزحـمـة الميلودرامـيـة لنقل رمـسـيس الثانى وجدت نفسى أسعى لمحاولة كتابة شىء أى شىء لهذه المأساة كـتـبت سطورا قليلة بالاهرام غيـر ان شـاغلى الاكبـر كـان لكتابة دراما شعرية عن هذه الشخصية رمسيسس الثانى

لقد آلمنى رمسيس الثـانى قبل أن ينقل أو وهو فى سبيله للنقل، وقد سعى المسئولون لاحاطته بالحديد والاسياخ التى يزعم إنها لحمايته ..

شغلت تماما بهذا المصير ومظاهره.

كـان رصد مـايجرى للتمـثال يلحظ أنه جرى العمل لإجراء إجراءات عنيفة للتمثال بهدف حمايته خاصة بالرادار وأشعة إكس والأشعات المقطعية على أجزاء التمثال الطريقة التى

اعلن عنها فى الربط لأجزاء التمثال التى تم جمعها وهى عبارة عن ٦ أجزاء والجزء المضاف والحديث القدمين وهذا الحجر تم ربطه بقاعدة ضخمة جرانيتية ثم بقاعدة خرسانية عميقة تحت الأرض إلى جانب ربطه بالأجزاء الأصلية بطريقة الخوابير الحديدية ومواد اللصق..

وعليه تبين أن تفكيك التمثال إلى أجزاء يضر بالأثر- كما اعلن المسئول -.. وسعت هذه الجهات الرسمية لاجراءات أخرى، ووضع الطريقة المناسبة ـ كما أعلن ـ لنقله ككتلة واحدة داخل محتوى إما هيكل حديدى أو مادة أخرى مع وجود مادة أسفنجية بين جسم التمثال والمحتوى مع ضرورة كشف وجه وصدر وبطن التمثال ليراه الناس أثناء عملية النقل، وسوف يتم رفعه بأوناش عملاقة مع توفير أوناش بديلة تحسبا لأى أخطار.

هكذا شهد العالم المنظر المثير المستفز الذى تم به نقل التمثال.

على هذا النحو سعيت لمحاولة تحويل هذا كله الى دراما شعرية او حاولت هذا ..

انتهيت من الفصلين تماما عدا متر او مشهدا بقى للانتهاء من النص.

أصبت بصداع عنيف ..

لم أستطع الانتهاء من النص تماما

جاء ابني أحمد .. تركت كل شيء وهبطت

حاولت معالجة هذا الصداع المثير المخيف ..

لم أستطع الخلود إلى النوم

كيف لي ان انام

هكذا تساءلت فالنوم كان وظل دائما شيئا غريبا بالنسبة الى

صعدت الى هنا من جديد حاولت ان اكتب شيئا عن هذه التجربة بين ألم العينين وصداع الرأس المخيف..

اترك هذه السطور بين حيرتي، أن يكون عنوان النص (عودة فرعون) أو عنوانات أخرى راودتني والفجر يؤذن .. قلت لماذا لاتسميه (جنازة فرعون) خاصة أن النقل كان يعني نقل الجد الاكبر رمسيس الثاني الى الصحراء برثاء أخير.

أقول ظللت فترة حائرا هل(عودة فرعون) ام (جنازة فرعون) ..

تركت هذه السطور وانا حائر ولم يتركني هذا الهاجس

فقد تذكرت هذه الرواية التى كتبت عقب رحيل عبد الناصر (فى جنازة الرئيس) ..

لأترك كل شيء الآن واهبط الساعة تقترب من الرابعة.

وسوف أعانى ساعات قبل أن أنام نوما مترددا كابوسيا لعينا .

مهلا أيها الجوزاء هذا كل ماتملك ..

١٠ اكتوبر ٢٠٠٦

ها انا احاول الانتهاء من السيرة الذاتية لى، ها أنا أعانى من الرفض النفسى والضيق الفكرى والألم الذى يلازمنى بإدمان، وهو الحزن الشجى، حاولت ان انتهى من الجزء الاخير الخاص بالصعود إلى الهاوية وجدت لدى كما رهيبا من الأوراق، لكن وجدت حسا خاصا يدفع بى إلى التنبه إليه وانا اكتب، أكتشفت اننى اتذكر ما هو بعيد اكثر مما هو قريب ومع أن هذه السمة تبدو كثيرا لدى من يصل إلى الستين وربما قبلها فإننى امام هذه السمة التذكر لما هو بعيد اسعى للخلاص من الزيف القريب أى إننى أخشى أن أكتب عن السنوات الاخيرة الربع قرن الأخير أكون قد وقعت فى دائرة النسيان أو استعادة التاريخ بأثر رجعى، وفى جميع الحالات أكون مرشحا للنسيان أو السقوط.

جمعت أوراقى القديمة كلها.

جلست احاول التنسيق بين اوراقى القديمة فى هذه الحقبة وذاكرتى المثقوبة في كثير من أحداث هذه الحقبة ايضا

هل ما أحس به الآن وأنا أقترب من الستين حقيقة

وهل هى بالفعل - أعراض الزهايمر كما يعرضها لنا السيد زهايمر فى كتاباته الطبية.

وهل يترتب على هذا السقوط فى ثقوب الحاضر اكثر من التنبه الى محاذير السقوط وهى كثيرة؟.

أم أن هذا كله وهم وانا اسعى هنا لتجسيد ماليس قائماً بالفعل

انا لست حائرا انا احس فى فترات عدم النوم - وهى كثيرة، وقد أعانى كثيرا من القلق وقلة أوقات النوم غير اننى أحس الآن أكثر من أى وقت مضى اننى كلما صحوت من ساعة أو ساعات من النوم المضطرب (وهذه هى السا عا ت التى اعرف فيها كلمة النعاس) أن الذاكرة مشوبة بكثير من الخدر وان التركيز بعيدعن التنبه الصحيح ..

لا أعرف لأقل هذا؟ ثم أترك سجيتى فى هذه الفترة الأخيرة تخط ما تشاء..

على أية حال كتبت بالفعل هذه اللوحة (الصعود إلى الهاوية) أو حاولت أن أكتبها وانا اتنبه لهذا الهاجس ..ثم سعيت بعدها أن أرتب بعض الاوراق الكثيرة التى لم استطع نقلها هنا إما لطولها او لتكرارها غير انه لفت نظرى ملاحظات عامة مكتوبة احب ان اشير اليها هنا خوفا من السيد زهايمر ..

* من ذلك أننى أنتمى منذ فترة مبكرة الى اليسار فقد تاثرت فى سنواتى الاولى بالمفردات الاشتراكية اكثر من المعطيات الماركسية ...

أذكر أننى فى فترات صبوتى وشبابى كنت احمل كتب الماركسيين وشروحها الكثيرة ثم النتاجات المنبثقة عنها او المعارضة لها لاحاول الفهم قبل مواصلة الحياة لكننى اذكر جيدا من واقع الأوراق المكتوبة ـ فالمكتوب الآن هو الذاكرة الحقيقية - أننى عرفت العديد من افكار ويوتوبيا فوريير لكننى تأملتها أحسن تأمل وتمثل عند باكونين Bakunin وأيضا هذه الأفكار المؤثرة المغرية لسان سيمون وخاصة الفترة المضيئة الغامضة والسرية التى قضاها اتباعه فى مصر فى ثلاثينات القرن التاسع عشر فى مصر ..

وقد قرأت عنها الكثير بالفرنسية ..

أقول إننى انتمى للمفردات الاشتراكية بمعناها العميق ربما لهذا السبب بعد ان قضيت وقتا طويلا فى الكتابة الادبية فى صفحات الادب والفكر (والادبيات الكثيرة التى نشرت ككتب) لاحظت فى فترى متأخرة من حياتى من يضعنى فى خانة الناصريين ..

قلت فى نفسى : لابأس أن أنتمى للفكر الناصرى، وهو فكر ينتمى فى مرجعياته الأولى إلى الفكر الاشتراكى كما أريد، ومن ثم لم أتنكر لهذا الانتماء وإن كنت واعيا تماما ان الفكر الاشتراكى بمعناه العميق هو انتمائى الاول وهو مايقربنى ويبعدنى من هذا العصر أو ذاك من هذا الحاكم أو ذاك ..

وربما لهذا السبب لم احسب فى موقف مناهض للعلمانيين، لقد عرفت واحببت طه حسين الذى كان ينتمى للعلمانيين، وان كانت افكاره اشتراكية، كما انتميت الى زكى نجيب محمود وكانت بيننا صداقة لصيقة رغم فارق السن لكونه منتميا للفكر العلمانى فى توجهاته الاولى والأمثلة تتعدد .. أقول مع اننى لا أنتمى للعلمانيين فى تربيتى الاولى الفكرية فاننى لا اقف منهم موقفا مناهضا فى فهم النصوص الدينية خاصةاو (محايدا) وانما كنت اقرب إلى

الانحياز لهم انحيازى للعقل اكثر من التهاويم العقيدية او الفلسفية التى لاتقوم على قيمة العقل ..

* وربما لهذا كنت ارتبط بشكل ما بـ د. حسين فوزى صاحب كتاب (السندباد) المعروف بميله العلمانى الخالص/ وبالتبعية ارتبط معه وعيى الخاص بهذا الميل وموقفى منه ..

ففى البداية كان اكثر مايحيرنى فى هذا الرجل ميله الخالص للغرب رغم عداء الغرب الخالص لنا او عداء الاستعمار التقليدى ثم الامبريالية الاميريكية فيمابعد.. وأذكر أننى تحدثت إليه كثيرا فى منزله وامام زوجته الفرنسية وهو يبدى ميله الجارف (الذى بدا غافلا) فى سنواته الاخيرة للغرب ايا كان ..

ومن هنا كان يلح دائما على سؤال مهم كنت أوجهه للسندباد فى الاهرام (حيث كان من رواد الدور السادس) او فى بيته بشكل هادىء كيف يحرص على الغرب وقد اصبح الغرب مناهضا لنا الآن خاصة انه اصبح مؤيدا بعنف للموسيقى الغربية دون الموسيقى الشرقية بل والمعاصر للرجل فى هذه الفترة يلحظ ان الرجل رفض ان ينشر فى مجلته حينئذ - كانت مجلة " المجلة " - .. أى شىء عن الموسيقى الشرقية وهوماكان يشير معه إلى موقف تشاؤمى فى نظرته إلى الشرق ..

ومهما يكن من موقف الرجل الغربى الخالص فإنه كان يؤكد على ان الامل لن يكون موجودا إلا فى الشباب هذا الشباب كما أكد لى فى اكثر من لقاء شخصى الذى يقوم على عاتقه وحده سمة التغيير، وبالطبع كان يكرر دائما على مسامعى دور الشباب فيتبنى الفكر الغربى الخالص الذى يقوم وحده على قيمة الخلاص من الواقع .. وأذكر أننى حين واجهته فى منزله فى إحدى الامسيات بان الشباب الذى نعرفه الان انما هو الشباب الذى يغيب فى وسائل الاعلام المترفة او التافهة وفى الاغانى الهابطة وغياب ثقافة هذا الشباب عن الثقافة الإيجابية المقاومة..

وأذكر أننى قلت وكررت أن الشباب الذى تراهن عليه هو الآن يعانى الكثير من سمات العصر وهى سمات ضده حتى وان كانت تأتى كما تشيع دائما من الغرب. فأجابنى بثقة دهشت لها :

- طيب لماذا لاتنتظر حولك وترى الأمل فى هذا الشباب اننى اضع الثقة دائما فى الشباب

- ياسيدى السندباد قلت وكررت أن الشباب الذى تتحدث عنه غائب بفعل مشكلات كثيرة تعرفها جيدا فأجاب:

- طيب .. لتعرف ان الامل لدى موجود دائما واننى انتظره من الشباب.

– كيف؟.. سألت فقال بحسم غريب :

– السندباد ينتظر "جودو"

وفهمت أكثر ما يسعى إليه حين قال إنه يلاحظ ان جيل الشباب الطالع اكثر تقبلا واستعدادا للفكر الغربى من الجيل الذى نشأت فيه .ولم اكن فى حاجة مع مضى السنوات والهبوط من القرن العشرين الى الصعود الى القرن الحادى والعشرين ان ادرك ان الشباب المعاصر لم يكن متأثرا لا بالغرب ولا بالشرق لا بعلمانية الغرب (بعد سقوط الاتحاد السوفيتى فى بداية التسعينات من القرن العشرين) ولا بتراث الشرق (بعد سقوط العالم الاسلامى فى استعمار الغرب الأوروبى من القرن الخامس عشر الميلادى عقب الكشوف الجغرافية او بعد قرون فى إمبريالية الغرب الامريكى فى القرن العشرين..)..

جيل الشباب الذى نضع عليه امالا كبارا هو الذى ننتظره مع حسين فوزى منذ قرون وننتظره فيما أظن بعد قرون مع جودو . أسجل هذا وكلى يقين بالأمل، وكل مسكون بالآية الكريمة عن التغيير (إن الله لايغير ما بقوم) وأنا مسكون بشروط التغيير (وأعدوا لهم ما استطعتم ..) صدق الله العظيم اقول هذا لأننى أعيش مع عناصر تكوين هذا الشباب

سواء مع الأميات الكثيرة التى عادت لتجتاح المنطقة العربية (كالامية الهجائية او الامية الثقافية) ولكن اكثر عند (الامية الرقمية) وملابساتها حين أصبح الشاب العربى يقع تحت الشات والبلوجزات والفهم المتدنى وفى الوقت نفسه لا يقدم له أى جديد فى مسار التعليم سواء المرحلة الجامعية او التى سبقتها ..

هل هى مؤامرة؟ هل هو فكر المؤامرة؟ ربما أجابت عن هذا كله وتماهت معه هذه المقالة التى كتبتها باهرام الخميس أكتوبر ١٦/١٠/٢٠٠٦م.

وقد يكون من المهم العود اليها لنعثر على ركام الحزن الشفيف الذى يتملكنى كلما ذكرت الشباب وأولادى والمثقفين وأصحاب الرأى من العلماء و..

(*) وعلى هذا لم أسع إلى رحلة تقويمية للطريق والأماكن بشكل تقليدى (وهو ماقام به محمد كامل أمين: دليل الحج للوارد الى مكة والمدينة من كل فج) (١٢٩٧/١٨٨٠-١٣٠٢/١٨٨٥)

كما اننى لم أسع للحج بهدف دينى وارشادى كما كان يفعل رحالو العصور الوسطى وسار وراءهم عدد من رحالة العصور الحديثة كما فعل مصطفى محمد فى كتابه:فى المملكة

الروحية للعالم الاسلامى ١٣٤٩/١٩٣١.

أيضا لم أسع الى الحج كصحفى - وأنا مهنتى الصحافة لمتابعة الطريف والزيارة وتقديمها بشكل ما (كما فعل محمد شفيق مصطفى١٩٣٧) او (حتى مراد هوفمان فى نهاية القرن العشرين).

أيضا لم أرد أن أكتب رحلة علمية خالصة استقصى فيها كاصحاب العلوم الاجتماعية الاثار الاجتماعية او اصحاب العلوم الدينية وما إلى ذلك (كرحلة أحمد حسين فى رحلاته المتوالية أعوام ١٩٤٠ ـ ١٩٤٨ ـ ١٩٣٤).

قبل الخروج.....

٢٣ سبتمبر ٢٠٠٦

الثالثة صباحا .. منذ فترة ليست بالقليلة وأنا أعانى هذه المشاعر التى تسلمنى إلى (حالة) قاتمة من الكآبة الشدية التى تسلمنى - بالتبعية - إلى الغضب والضيق والضجر والألم النفسى العاتى والألم الحى القانى.. بالطبع هى (حالة) ليست جديدة ، عانيت منها طيلة حياتى ، غير أن الجديد حقاً أننى أعرف معها فى الحقبة الأخيرة الوصول إلى أقصى حالات السواد..

صحيح أننى أسعى للخلاص من هذا غير أنه من المحقق لا شئ يمكن أن يخفف كل هذا الألم فى دخيلتى أحاول أن أشغل عنها ، ولكن هيهات ، أن حولي الكثير من البواعث التى تدفعنى إليها ، والتى تدفعها إلىّ .. أنا كالعادة ضيق الصدر بكل شئ ، أعانى وأحمل كل هذا الألم الثقيل بملابساته فى كثير من الوقائع والأحداث وأنا كعادتى لا أعرف النوم ، اللهم إلا ساعة أو أكثر من ساعة ، نوما كابوسياً مروعا متقطعاً.

ساعة فى اليوم - أربع وعشرين ساعة - وهى فترة بسيطة أحاول أن أغيب فيها عن هذا الوجود ، فاكتشف حين استيقظ بعد ساعة أو بعض ساعة أن كم السواد بأعماقى أصبح كثيفا ، وأن درجة الاحباط جاوزت كل درجات هذه الحالة.

ماذا .. إلى الآن لم أكتب حادثة أو حادث .. وإلى الآن أقاوم أن انفض كل شئ واذهب للنعاس ، غير أننى كلما تذكرت هذه الوسيلة للهروب - حتى أحس بحمى الضيق والألم ، ومرارات الحياة العاتية ، ارتعاشات حادة تجتاحنى هل حاولت أن أعبر عما أعانيه ؟ لا أعرف ، المهم أننى لا أستطيع الآن التواصل ، فلا ترك كل شئ الآن.

٢٤ أكتوبر ٢٠٠٦

هذا هو صباح العيد .. اليوم الأول .. وها هى (حالة) الكآبة الحادة تستبد بى..

البيت كله نام .. الزوجة الحبيبة تحاول الإغراق فى النوم بعد إصابتها منذ قرابة العام بالقلب .. ننتظر تغيير شرايين وإصلاح صمام مترالى وعمل دعامات .. وما إلى ذلك وصغارى مازالوا فى حالة نعاس شديدة .. لم استطع مساء الأمس مقاومة هذه الحالة القلقة المقلقة .. فذهبت على غير عادتى إلى حجرة النوم ، وحاولت الإغراق فى هذا السبات الذى لم أعرفه قط .. حاولت ولم أنجح ، بالطبع..

هذه أشياء لم أكن لا أعرفها قط فى تكوينى ، لم أكن أعرف المرقد ولا النعاس قط ، كنت أعيش دائماً اليوم كاملا (٢٤ ساعة) فى نشاط وحيوية ، كنت أرى - دائماً دائماً - أن النوم معادل موضوعى للموت ، ومن هنا ، كنت أرفض الموت وكنت أعيش ساعات حياتى كلها ، لم أكن لأنتظر النوم أو ينتظرنى فأنا أحيا فى (حيوية) دائمة أو نشاط ذهنى مشتعل حاد بتكوينى ، صحيح أننى لم استطع التخلص قط من هذا القلق المقلق ، لكننى كنت أعول من ناحية أخرى على هذا (التكوين) الحيوى العنيف الذى يدفعنى للصحو دائما ،

يدفعنى للكتابة والإسراع نحو المجهول فى عالم الكتابة أو فى عالم الحياة ، غير أن هذه (الحالة) التى أجنياها الآن فى الفترة الأخيرة ، وأنا أقترب من نهاية العقد الخامس ، أصبحت تسيطر علىَّ ، الكآبة السوداء الممتزجة بالتشاؤم والحزن والأرق والقلق..

ماذا حدث لك أيها الجوزاء.

ترى أعمالك وكتاباتك التى تقترب من السبعين كتابا الآن فلا تكترث بشئ ، تحس برأسك اللعين يرتبط بالأحباط ، المرعب فلا تكترث بشئ ، تتناول كميات هائلة من الأقراص المهدئة والمضادة للقلق اللعين الدائم فلا تكترث بشئ ، ترى (الحالة) العامة والخاصة حولك ينالها الجمود والإحباط والضياع والخراب فلا تكترث بشئ.

هل لا تكترث بشئ بالفعل ؟

ماذا أيها الجوزاء بالأمس ، عانيت كثيراً هذا الأحباط ، وقد استيقظت من نوم ثقيل على آلام دماغية مريعة ، حاولت أن أنهض بحيوية قمت بتكاسل وقنوط شديدين ، حاولت الخروج من البيت للذهاب إلى الأهرام - حيث أعمل ؛ أضيف إلى الألم النفسى الشديد الألم الرأسى اللعين ، مررت على صيدلية ، طلبت قياس (الضغط) سمعت صوت الطبيب أن

الضغط مرتفع قليلاً» ، عبست ، ماذا ؟ لم ألبث أن أنصرفت فى وجوم لأهبط وسط المدينة حيث رصيف الكتب الكبير فى وسط البلد .. مازال الإغراق فى الكتب هو – هو فقط ربما – ما يمنحنى بعض القوة والنشاط غير أن القاسم المشترك دائماً فى الماضى والحاضر هذه اللوثة الدماغية مزيج من الألم والحزن والقلق والأرق والكآبة والتعاسة والإحباط .. الخ يسيطر علىّ..

ماذا أيها الجوزاء .. حدثت نفسى فى صمت ومرارة ؛ يومك كأمسك الآن.

الألم النفسى يزيد والتعاسة الدماغية تشتد ..

هل تظل هذه (الحالة) السمة الاساسية فى نهاية العمر؟

وهل سأقضى حقا فى هذه التعاسة القاتمة ..

صحوت اليوم فى ألم أخذت اتعرف عليه ببطء أولاً بأول ، هذا الألم النفسى والكآبة المروعة.

قلت ، لأهرب فى الشروع فى هذا البحث الذى يجب أن ألقيه فى مؤتمر (الأدب المقارن) الذى سيعقد فى أول نوفمبر ٢٠٠٦.

.. أى لم يبق غير أيام قليلة .. سعيت إلى الانتهاء من

بحث كان يجب الانتهاء منه من زمن ، طلبه منى أكثر من مرة المسئول عن المؤتمر - د. عز الدين إسماعيل - لكننى مع هذه (الحالة) خاصة مع إجراء عملية فتح قلب لزوجتى العزيزة لم استطع الركون إليه أو الانشغال به».

حاولت أن أشغل بالبحث والقراءة والإغراق فى كتاب حتى أنسى ما خارجه مهما يكن و - كما اقرأ دائماً - بشكل ما.

بعين الطائر Bird سs Eye View الصمت هو سيد الأشياء ، اللهم إلا من أصوات تعلو من آن لآخر ، لكنها لا تترك أثراً فاعلاً.

البيت حولى صامت ساكن ، الجميع نيام ، نيام.

اليوم أول أيام العيد أول محرم من عام ١٤٢٧ من الهجرة أى ١٤ بابة ١٧٢٣ ولكن لماذا أكتب هذه التواريخ ، لأننى - وأنا لا أستطيع أن أخلص من قلقى الدائم - .. اسعى لتوثيق فترة زمنية أعيش فيها أو تعيش فىَّ .. ماذا ؟ وهل هذا يهم أحداً ؟ هل عدت إلى الألم النفسى؟ وهل جاوزته بالفعل؟ لا الأمور كلها في خلط ، ومازلت أحيا هذه (الحالة) من الروع والخوف والغربة والألم النفسى .. لأحاول أن أجاوز هذا كله لأعد إلى هذا البحث الذى آمل الانشغال به عما أعانى والانشغال به عن صوت الضمير..

لاعد إلى الهروب.

أو لأعد إلى ألم الهروب وكآبته وأنا أسأل فى صمت وأسى.. ماذا أيها الجوزاء..

٩ نوفمبر ٢٠٠٦

الواحدة والنصف صباحاً ، قضيت اليوم السابق كله منذ الصباح فى قلق وتعب شديدين ، لم أنم الليلة الماضية ، كان الأرق زائرا ثقيلاً ، حاولت أن أذهب إليه بعد قضاء وقت طويل فى كتابة أو تسجيل اعتراف أحد (المصادر الحية) .

لتاريخنا الحديث ، فقد عرفت أن إسماعيل صبرى عبد الله رحل ، عرفت بشكل عابر من إحدى الصحف ، ظللت أبحث طويلاً عن الحوار الذى كنت سجلته معه وأنا أكتب أطروحة الدكتوراه ، كان حواراً طويلاً عاصفاً ، استعددت له – كما أفعل دائماً مع المصادر التاريخية للفترة الناصرية – خاصة ، وأنه مثقف وسياسى راديكالى ينتمى إلى اليسار ، ولعب (مع رفيقه د. فؤاد مرسى) دوراً مهما فى تاريخ مصر خاصة النصف الثانى من القرن العشرين ، ظللت أحاوره طويلاً فى ثمانينات القرن العشرين ، وكان الرجل صادقا إلى حد بعيد ، بحثت طويلاً عن هذا الحوار الذى كنت سجلته فى وقته ، عثرت عليه ، ظللت لساعات الصباح من الليلة الماضية

اكتب هذا الحوار على الجهاز الشخصى لى I Book والذى أكتب عليه كل ما أكتب منذ سنوات بعيدة ، فلم أعد أعرف القلم منذ أكثر من ربع قرن.

أعود ، حاولت النوم قليلاً دون جدوى ، غبت في متاهة من الألم لساعة أو بعض الساعة ثم صحوت فى هذه الحالة التى أجد نفسى فيها دائماً ، الأرق ، والألم النفسى الحاد ، والغثيان النفسى غير الواعى ، الضيق والحزن السرمدى ، حاولت أن أتماسك ، أحتسيت النسكافيه ، حاولت أن أحمل أوراقى وأطير إلى مكان العمل ، الطريق إلى الأهرام والأياب منه بعد عدة ساعات زاد من قسوة الألم النفسى والمتاهة الذاتية التى أعيشها فى السنوات الأخيرة ، صحيح أن هذه المتاهة عشت فيها طيلة حياتى ، غير أنها زادت قتامة وحزنا فى السنوات الأخيرة .. حتى أن الطبيب يحذرنى كثيراً ،، أن القلق والحزن المستمرين يمكن أن يقترب بحالة الزهايمر .. يمكن.

عدت اتلفت حولى فى المواصلات العامة فى الذهاب والعودة ، ماذا لو انتهت الأشهر القليلة قبل الوصول إلى المعاش ولم أوفق فى الاستمرار فى الكتابة ، يا إلهى .. الألم يتصاعد من رأسى ، الألم يتصاعد من حزنى وألمى الشديد،

الألم يسيطر عليّ خاصة ، أن كثيرا من المواقف الرديئة أعاني فيها من عديد من زملاء العمل ، وعديد من الكتّاب المفترض أن لى معهم علاقات طيبة ، كم أحس بالألم الشديد ، فأنا أحس بخيانة كل شئ لى الآن..

بعض عزائى أننى عدت لأعادة النظر وتنقيح النص الأخير معى (الطريق إلى النمر) – دراما شعرية– عن البطل أحمد عبد العزيز .. ها أنا أسعى لعمل شئ مهم ، أو بالأحرى بالأغراق فى عمل شئ أو أشياء للهروب من ذاتى .

ها أنا أجلس الآن محاولا أكمال حوارى مع اسماعيل صبرى عبد الله الذى رحل أول أمس لأنشره بالأهرام .. أنه حوار طويل ، أردت أن أسجله لأضعه مع أقرانه ممن أعدهم (كشهادة) حية لفترة ثورة يوليو فى القرن العشرين.

ها أنا أحاول أن أواصل.

مس الحزن والألم النفسى يسيطر على تماما ، زوجتى مازالت تعانى مرض القلب اللعين ، حتى بعد إجراء العملية الخطيرة فى معهد القلب : مازالت تعانى ، سأذهب للاطمئنان ثم أحاول أن أعود : أغرق فى أوراق هنا» .

أحاول الهروب من الذات القاسية القاتمة بالألم والأسرار الغامضة لما أنا فيه الآن .. لأحاول .

٣١ ديسمبر ٢٠٠٦

ماذا أيها الجوزاء : استيقظت من النوم منذ ساعات ، ومع ذلك ورغم ذلك ، (حالة) الحزن القاتم القائم دائما مازالت جاثمة فوق قلبى .. هل قلت النوم أنها نصف ساعة أو تقل قليلاً فى تهويمات وصمت وشجون ، واستيقظ لتتجسد كل هذه الأحلام فى الواقع فى قلبى الحزين..

فى الصباح ذهبت إلى زوجتى بمستشفى السلام الدولى ؛ أرثى كثيراً لحالتها بعد هذه العملية الخطيرة ، غادرت المستشفى إلى الأهرام ، وعدت إليها فى المرة الثانية بعد السادسة ، نفس الآلام ، نفس مشاعر الحزن النابع من الألم التابع لهذه العملية التى قال لى عنها الطبيب :

– هى من أخطر العمليات فى حياتى كلها ، ولذلك ، قمت بالغاء رحلة الحج فى اليوم التالى لأتابع هذه الحالة ..

مازالت فى هذه الحالة المؤلمة .. أنه القلب ، شرايين القلب التى تغيرت والصمام الميترالى الذى تغير و .. أشياء أخرى كثيرة.

كنت منذالصباح أعانى من هذا الألم الحاد فى رأسى ، تناولت الكثير من أدوية البرد ، وبعض العقاقير الطبية التى

تريح المشاعر وتهدئ من الشجون إلى حين ، مازال رأسى اللعين يسيطر علىّ ، حاولت العود إلى المنزل ، التقيت بأبنتى ، بعد قليل حاولت الاغراق فى النوم للهروب من هذا كله استيقظت بعد فترة بسيطة ، وقد ذهبت بعض الآلم لرأسى واستبدلت بها هذه (الحالة) المدعومة من الألم النفسى الحاد والكآبة السرمدية..

الآن الساعة الثانية والنصف صباحاً ، أى اليوم الأخير فى هذا العام ، اليوم الأخير الذى أعيش فيه من أيام حياتى كلها ، اليوم الأخير الذى أحس فيه - كما أحسست دائما - بهذا الكم المروع من الكآبة والألم النفسى المضنى ، ها أنا أصعد إلى الكومبيوتر ، أحاول الغياب عن نفسى فى الفضاء الافتراضى كما كنت أسعى من آن لآخر فى هذا الفضاء اللانهائى منذ سنوات ، غير أن حدة الكآبة النفسية وصلت الآن إلى منتهاها ، جاء أحمد ابنى ، وجدنى جالساً صامتاً أمام الجهاز .. لم أطل معه الحديث ، فلا أحد فى هذا العالم يعرف ما أحس به وما أعانيه ، لملمت بعض أوراقى وهبطت إليه هنا ، حاولت أن أفكر فى العنوان الأخير الذى أخترته لهذه الدراسة وجدتنى أكتب العنوان على ورقة بجانبى ووجدت تسلسلا مبررا لهذا العنوان الأخير (الاستشراق وترجمة معانى القرآن - جاك برك نموذجا) ، وهو العنوان الذى ذهبت

بكثير من عناوينه الداخلية (فصوله وأبحاث) إلى عديد من المؤتمرات فى فاس ووهران وباريس ومدريد إلى الأردن وسوريا .. أحاول دائما أن أفرض عنوانا ، أدون فيه تأملاتى العلمية الصارمة على العنوان الذى أختاره ، وأذهب به إلى هذا المؤتمر أو ذاك ، وهناك ، حين يحدث تماس بين المنصة والقاعة أحاول أن استفيد كثيراً بهذه الجدلية ، فأعيد النظر فى بعض ما توصلت إليه أو أدافع عن بعض ما توصلت إليه بعلمية خالصة بعيداً عن التحيز والاغراق فى الذاتية ، هذا الجزء من الكتاب (الميثولوجى عند جاك برك) ذهبت به إلى وهران ، وهناك قضيت أكثر من ساعتين محاورا الأساتذة والعلماء والحاضرين ، وعدت لكى أعيد كتابة البحث / الفصل من جديد ..

قلت عدت لأحاول أن أكتب مقدمة لهذا البحث / الكتاب الأخير ، لم استطع ، لم استطع أن أتغلب على حزنى الدفين ، تركت كل شئ ، وهبطت إلى مكتبى ، حاولت أن أضع بعض الهمسات الحزينة فى أعماقى على هذه الشاشة .. بأصابعى ، فأنا أذكر أننى لأكثر من ثلاثين عاما لا أكتب بالقلم قط ، فى البداية كل مقالاتى وأطروحاتى الجامعية وكتبى .. كلها بدأتها كتابة بشكل مباشر على الآلة الكاتبة ، ومع التسعينيات كان على أن استبدل بالآلة الكاتبة الكومبيوتر..

هل ما أفعله الآن هروب مما أنا فيه ؟ كيف ؟

أم هى الأيام الأخيرة من أى عام ميلادى أحس فيه بزيادة هذه (الحالة) القاتمة من الحزن ، أم ماذا ؟ لا أعرف كل ما أعرفه أننى أحاول الآن أن أعبث على هذا الفضاء ، أكتب ما يعن لى ، فقلبى ثقيل ، ثقيل .. ولا أجد أنساناً ما فى هذا الكون لأفض إليه ما يجتاحنى ، أى إنسان ..

ما هذه الحالة .. على أية حال ، هى حالة أعرفها منذ بداية حياتى وأنا فى الرابعة عشرة من عمرى .. تجتاحنى هذه الحالة من الحزن اللعين ، فقط الأختلاف أننى فى السنوات البعيدة كانت هذه الحالة تغلف بحس رومانسى يقترب من الشعر والفضاء اللانهائى ، أما الآن فإن حالة الحزن أصبحت قاسية غاشمة خالصة ، لا رداء رومانسى أو غطاء اتشح به لا خفى بعض ما أعيشه .

ها هو اليوم الأخير فى هذا العام ، وها أنا كما عرفت نفسى – على وجه التقريب – من سنواتى الأولى ، ماذا يحدث ولماذا وكيف .. الخ أسئلة كثيرة لم استطيع الأجابة عنها ، سأرحل من هذا العالم دون أن أجيب عن أى سؤال يسيطر علىّ ، على وجدانى .. فقط ، لا توقف .. ما عدت استطيع.

٨ يناير ٢٠٠٧

ماذا أيها الجوزاء ، ما هذه الحالة التى أصبحت فيها دائماً ، نجحت أن تخفيها عن أقرب الأقربين لك ، لكنك لم تستطع أن تفعل ذلك مع ذاتك .. ماذا ، الساعة الآن تقترب من الرابعة صباحا ، انتهيت من قراءة عدد هائل من الصحف العربية والفرنسية ، أحسست فى النهاية أننى لم أعرف الكثير بعد عن هذا العالم المجنون الخارجى ، لم أعرف الكثير عن هذاالعالم المجهول فى دخيلتى .. لم يزدنى الإغراق فى هذه الصحف إلا حزنا وألما وتساؤلا ..

الزمن أسرع بى كثيرا ، اقترب من الستين ، انظر حولى فأحس بالهزيمة والألم .. منذ أيام وأنا أحس بهذه (الحالة) تستحوذ علىَّ ، حالة من الروع الشديد ، لا أعرف لماذا ، الروع الشديد من كل شئ فى هذا العالم ، تذكرت الدعاء .. (.. اللهم .. آمن روعتى) ، تذكرت أننى أدع بهذا الدعاء كثيرا ، الألم والروع والحزن السرمدى الثقيل يستبد بى .

دفعت كل هذه الصحف بعيداً ، تناثرت معها بعض الروايات التى حاولت الإغراق فيها فى الفترة الأخيرة للخلاص من هذه (الحالة) ، اكتشفت أن الكومبيوتر مفتوح أمامى ، حاولت أن أبحث فيه عن شئ مجهول ، تنهبت أننى

أكـتب فى الصـمت حـولى ، لابد أن أترك كل شئ الآن إلى الساعة التى أنتظرها واتحايل كثيرا على الحصول عليها للنعاس ، أو لـلأنتقال من هذا العالم إلى عالم آخر أكثر منه قتامة وحزنا ولكنه أكثر منه أيضا حزنا سرمديا غامضيا ،، ماذا أفعل الآن ، وما أهمية أن أكتب هذا كله إذا كان المصير معروف ، والنهاية هى صمت طويل ، الأبدية ، ... لأترك كل شئ فلم أعد أعرف شيئاً ، ماذا يدور حولى أو ماذا يدور فى أعماقى أو ماذا ..؟»

١٢ يناير ٢٠٠٧

أسعدنى لقاء مجدى الدقاق ، رئيس تحرير مجلة (الهلال)، كنت قد أرسلت إليه بنسخة من (السيرة الذاتية والفكرية) للنشر فى كتاب الهلال ولأن مساحة هذه السيرة كبيرة إلى حد ما عن أى عدد فى السلسلة ، فقد أبدى كرما كبيراً حين اقترح علىَّ ألا أحذف منها شيئاً وتوزيعها على عددين متتالين ، لكم كان كريما ، أعجبت كثيرا بأسلوب التعامل مع النتاج الثقافى أو هذه السيرة ، أعجبتنى طريقته فى التعامل مع هذا النص ، وكان الإعجاب يمتد إلى الوراء لأكثر من عام منذ أصبح مسئولا عن رئاسة التحرير .

هذا هو رجل آت من بلاد الله ، لم يأت من مـؤسـسـات

ثقافية أو من انطباع ثقافى من أحد المسئولين ليتولى الرئاسة، وها هو يتعاون معى بشكل جاد.

ليس هذا الموقف منى إغراقا فى حالة مزيج من الإيثار والكرم ، الايثار لهذا الشخص الرائع والكرم لهذا التدفق بعفوية ليقترح علىَّ نشر هذه السيرة خلال جزئين متتالين - شهرين - أحدهما السيرة الذاتية والأخرى السيرة الفكرية ، لكم أحسست براحة شديدة ربما كان هذا يعود تعبيرا قبل كل شئ ، لمدى الوعى الذى يغلف فكر هذا الرجل منذ مسئوليته عن سلاسل الهلال .. لكم هو عملى .. انصرفت من مكتبه لأحدث نفسى طويلاً كيف سيتعامل معى القارئ الكريم بعد أن كتبت ما كتبته فى سيرة ذاتية خاصة ، وكنت واضحا أشد الوضوح .ولم أخف شيئاً ، وتذكرت كيف صرح لى د. لويس عوض بعد أن انتهى من كتابة سيرته قبل أن يرحل بليل ، مبديا لى تخوفه من درجة الصراحة العالية فى ما كتبه ، وكيف أنه - وهو يحمل مخطوطة السيرة قبل أن يدفعها إلى النشر .. كيف أنه حذف منها أكثر من فصل كتبهم بصراحة شديدة عن أسرته وعلاقاته المبكرة بمن حوله سواء على المستوى الشخصى أو الفكرى ، وكيف أنه لم يستطع فى هذه السيرة - وكنت معه فى مكتبته الضخمة فى شارع الهرم

بعيداً عن زوجة فرنسية لا تفهم ما يفعل ، وبعيداً عن أقران أو إخوان لم يدركوا أهمية الصراحة التى كتب بها هذه الأوراق ، وبين خبرته التى طالت وبدت فى عينيه تأملا ما لبث أن تحول إلى نظرات كئيبة لإنسان غاضب ، انسان غاضب وعصبى معا وراح يكرر أمامى وهو يلقى أمامى بأوراق كثيرة مخطوطة فى هذه السيرة (أوراق العمر) هذه العبارة..

– ها أنا أحمل ثلاثة فصول من هذه السيرة لأضعها فى النار بدلا من أن أضعها فى ثنايا هذا الكتاب .. مازلنا فى الشرق لا نطيق الوضوح والانكشاف الواضح أمام الآخرين .

وراح د. لويس يذكر لى الكثير من الشخصيات – أكثرهم أقرباء له .. التى ستغضب غضبا هائلا من هذه الاعترافات ، فماذا أفعل – أضاف وهو لا ينتظر منى ردا.

– ماذا أفعل ومازلنا فى هذا العالم الشرقى الذى لم يتغير من قرون ، كيف لى أن أتحدث أو أعترف كما فعل الكثير من الغربيين وهو ما يحدد أهم شرط من شروط الاعتراف أمام صدق الذات وكرسى التاريخ وليس تماهى الذات وكرسى التقاليد وحسب..

اعترف أنه كان يتسلل إلىَّ شيئاً من الخوف لعديد من المواضع الذى لا يعرف عنها أحد شئ ، أو لم أبثها – حتى –

لأقرب الناس إلىَّ ، فقد عانيت منذ طفولتى الكثير من الآلام والأحلام التى كونت تكوينى المعاصر ، إنها مرحلة من فقر الطفولة وتنامى الحرمان ، ففى الوقت الذى كان أقرانى فيه يلعبون ويلهون كل بطريقته ، كنت أنا – على المستوى الشخصى – وفى فترات الصبا – أعمل فى المصانع القديمة فى شبرا الخيمة أو الزاوية الحمراء أو أحياء السيدة زينب والحسين ، وغير ذلك لا لأعول نفسى فقط ، وإنما لأعول عائلتى الذى توقف فيها الأب منذ سنوات توفير وسائل العيش لأسرة تحت خط الفقر فى مناطق قديمة .. لكم بكيت وحدى فى طفولتى ، وكم عانيت وإن لم أبك بعد ذلك فى الجيش المصرى حين عرفت نكسة ١٩٦٧ فى الصحراء المصرية أو فى طريق السويس منْ الشرق إلى الجنوب ، من سيناء إلى القاهرة ، ففضلا عن الهزيمة المنكرة كنت أقضى السنوات على الرمال ، لا ثياب عسكرية جديدة فالفترة التى أعقبت عام ١٩٦٧ لم تعرف تسليم ملابس للجنود ، وكم كنت أبحث فى الليل المظلم الدائم عن أى متسلل قيل لنا أنه سيأتى فى أى وقت من هذه الصحراء ، وكم كنت أظل متيقظا وفى يدى السلاح والذخيرة وأنا أنتظر – كما تأتينا الأخبار – تسلل يهودى هنا أو هناك ، وكم كنت أظل فى درجة انتباه

غير عادية طيلة الليل فى انتظار أما متسلل فى الظلام أو مواجهة بعض الذئاب فى هذا الرمل اللانهائى فى الصحراء أو - حتى - كما حدث فى وحدة قريبة منى تسلل بعض أولئك البدو للاستيلاء على بسلاح الجندى بعد القضاء عليه .. وحتى بعد أن يتسلم منى أحد الجنود (النوبة) التالية ، فأبحث عن مكان فى هذه الرمال اللانهائية لأنال قسطا من النعاس دون جدوى ؛ إذ كنت أعانى الخوف من الأخطار السابقة ، فضلا عن أن مكان النعاس لا يعرف مكانا مريحا ، فقط الصحراء وبعض الأحجار التى كنت أحرص على انتشالها من الرمال والرياح لأضع رأسى عليها ، وكم كانت سعادتى حين أعثر - فى فترة انتظار نوبتى - على حجر واحد أضع رأسى عليه ولكن ، رحت أحدث نفسى :

- ماذا أيها الجوزاء ، ها أنت تغيب فى الذات ، أو فى الماضى الذى يشكل الكثير من خطوط الذاكرة المبكرة لديك؟...

على أية حال - عدت لأحدث نفسى - هى سنوات وأيام من سنوات وأيام عمرى الفانية أحاول تدوينها لوجه الله والتاريخ وليكن ما يكن .. ماذا ؟ صوت تليفون ، أهلا د.محسن ، الصديق محسن ، برقته وعلمه الغزير ، هو

الصديق الوحيد الذى أحتفظ بحبه ووعيه الإنسانى منذ سنوات ، د. محسن من أقرب الناس إلى الآن اتصارح معه بوضوح يعرفه جيداً ولا يتردد أن يعيده إلىَّ بصراحته ورقته المعتادة .. حدثته أننى أحس ببعض الخوف من هذه السيرة الذاتية التى ستنشر فى أوائل فبراير ، هون علىَّ ، ما رأيك أن أضع بين يديك البروفة قبل تسليمها للمطبعة يا دكتور ، لا مانع ، أجاب .. شكرته وعدت لأكتب .. أعود إلى هذه المجلات والكتب الكثيرة إلى جانبى لأعادة القراءة والتأمل وأنا وحدى هنا ، فزوجتى - شفاها الله - عند أسرتها و ، أنا هنا وحدى ، أدعو لها بالشفاء وأدعو لنفسى أن يعفو الله عنى ، ولا أتوقف عن ترديد (لا إله إلا أنت صبحانك أنى كنت من الظالمين) .

لأدع هذا كله ، وانتبه إلى كل هذه الأوراق والكتب .. هيا أيها الجوزاء .. حمل نظارتك ، وأرفع قدح النسكافيه السادة الثقيل وضع عينيك فى كل هذه الأوراق .. هيا ..

٢٣ يناير ٢٠٠٧

جاءتنى «بروفات هذه السيرة» ، لم أجد العزيز محسن ، هو مشغول دائما فى الجامعة وبين زملائه وطلابه ، فماذا أفعل ، طلبت مز الصديق مصطفى عبد الوارث بالأهرام

قراءة هذه (السيرة) وإهدائى عيوبى فى وضوح شديد وبغير مجاملة ، أجابنى بأنه سيفعل .. وبالفعل ، قرأ ما جاءنى من بروفات .. تناقش معى قليلاً ، أكد أن المذكرات أو هذه السيرة لا خوف منها ، ولا يمكن أن يوجه إليها أى مأخذ ، أعادت إليه ألا يجاملنى وأن يصدقنى ، بابتسامته الصامته راح يؤكد لى ما سبق أن قاله ..

عدت إلى المنزل وحيدا - اللهم مع الابن أحمد - كنت عصبيا ، غاضبا ، فقد ظللت طيلة النهار السابق أعيد قراءة صفحات السيرة ، أعيش فى حالة من الوجوم ، تحولت إلى حالة من التعب والأرهاق النفسى خاصة وأنا أحمل فى صدرى آثار حساسية وبرد شديدين .. حاولت الاغفاء قليلاً لأكثر من مرة دون جدوى ، صعدت إلى مكتبتى ، حاولت أن أبحث فى الشبكة (الانترنت) عن أشياء كانت تشغلنى ، أدركت بعد قليل مدى ارهاقى النفسى والجسمانى ، هبطت مرة أخرى ، سعيت لمحاولة النعاس ، النعاس ولو دقائق ، فشلت ، نهضت من هذا المكان لأحاول كتابة هذه السطور .. الساعة جاوزت الخامسة صباحاً ، معى كتاب أقرأه بشغف شديد (تقانة المعلومات والثقافة) لنبيل على ، كم أحس بسعادة فائقة كلما اقتربت من هذا لعالم ، الفضاء الافتراضى راح يسيطر علىَّ فى السنوات الأخيرة ، خاصة

إذا كان هذا يرتبط بالهم القومي أو الحلم القومى كما كتبت عن الكتاب لأكثر من مرة فى مقالتى بالأهرام ؛ حاولت القراءة لأكثر من مرة ، اكتشفت الارهاق النفسى والجسدى الهائل ، لأترك هذا كله ، وأسعى لاريح العقل مما به وأحاول النعاس ، لأحاول .. لأحاول .

حاولت ، حاولت النعاس ، ظللت قلقا تعبا فى هذه الساعات التى لا أعرف فيها النوم ولا يعرفنى منذ وعيت على هذه الحياة ، تسللت أغفاء مزعجة إلى رأسى المكدود ، نهضت من كابوس مريع فى الثامنة صباحاً .. اكتشفت أننى لا استطيع النوم ، ولا أستطيع اليقظة ، حاولت تناول «النسكافيه» ، جهدت أمام هذا الكتاب (تقانة المعلومات..) حاولت كتابة مقالة الخميس ، استطعت التغلب على نفسى وكتبت ، اكتشفت فى العاشرة صباحاً أننى أعانى من تشتت الكثير من يقظتى لأسباب كثيرة ، ها هى (دار الهلال) تستعجلنى لإعادة (السيرة الذاتية) بعد مراجعتها ، ثم هذه هى الهيئة العامة للكتاب تطلب كلمة الغلاف وصورة للغلاف الأخير فى كتاب (أوقاف القدس) ، وبإصرار شديد ، ثم تيقظت أكثر لمن يحادثنى أن أرسل إليه مخطوطة الكتاب التى أنتهى الصديق محسن من تقديمها ، وهى شهادات وكتابات كثيرة عنى قام بكتابة مقدمة ضافية ، ثم هذا هو صاحب دار

الكتاب المصرى اللبنانى يبلغنى أنه فى طريقه إلى الانتهاء من كتابى عن أدب الرحلات ناشدته أمس أن ينتهى قبلا من كتاب (المستشرقون الجدد - المراكز البحثية الغربية) .. وماذا أيضاً ، مازال القوس المشدود حادا عنيفا فى رأسى . ماذا أفعل لهذا كله ، على أية حال ، لابد من الاسراع بالخروج ، حملت أوراقى ، وما لبث أن جلست إلى الكومبيوتر ، وحملت أوراقى ثانية وتهيأت للذهاب للأهرام حيث أعد الصفحة الكاملة المسئول عنها (المنتدى الأدبى).

اسرعت بالخروج ، غبت طويلاً فى أشياء كثير لم أعد لأذكر منها الكثير فى هذه الدقائق الباقية من هذا اليوم ، لابدأ فى اللحظات الأولى من يوم جديد ٢٤ يناير .

ها أنا أتهيأ للانتهاء من كثير من الأشياء..

لكن ، هل سأنتهى فعلا من كل ذلك ، أم أرحل فى صمت بين كل هذه الأصوات والطلبات والمراجعات والسهر الدائم والهم المقيم .. لا أعرف ، ولكننى دائما ، كلما ازددت هما رحت أدعو فى صمت شديد (لا إله إلا أنت سبحانك ، أنى كنت من الظالمين..) ورحت بعدها أغيب فى متاهات بقية الدعاء الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل والفشل والهرم .. إلى غير ذلك مما أعيش فيه أو يعيش فىَّ .. لا إله إلا أنت سبحانك أنى كنت من الظالمين.

د. مصطفى عبد الغنى وقبلة من نجيب محفوظ



د. مصطفى عبد الغنى مع الروائى الفلسطينى إميل حبيبى



د. مصطفى عبد الغنى مع الشاعر الفلسطينى محمود درويش

فهرس



قبل الخروج

مشاهد من سيرة حياة

الجزء الثانى



د. مصطفى عبد الغنى

يصدر: ٥ مارس ٢٠٠٧م



٦١ شارع زين الدين



للروائي المصري: سعيد نوح

تصدر: ١٥ فبراير ٢٠٠٧

رئيس مجلس الإدارة
عبد القادر شهيب

رئيس التحرير
مجدى الدقاق

أحدث إصدارات كتب الهلال عام ٢٠٠٦ - ٢٠٠٧

اسم الكتاب	المؤلف	الشهر	السنة
أدب الانشقاق	د . رمسيس عوض	فبراير	٢٠٠٦
اعترافات أدبية	لبنى عبدالمجيد	مارس	٢٠٠٦
الصين فى عيون المصريين	د . أنور عبدالملك	أبريل	٢٠٠٦
ثنائية الحياة والكتابة	خيرى منصور	مايو	٢٠٠٦
شهادات فى الفكر والسياسة	سليمان الحكيم	يونيه	٢٠٠٦
مواطنون اختاروا الوطن	محمد هيكل	يوليه	٢٠٠٦
حكايات مسافر	حامد الشناوى	أغسطس	٢٠٠٦
الأديان والزمن والناس	رجائى عطية	سبتمبر	٢٠٠٦
النبع القديم	د. عبد الغفار مكاوى	أكتوبر	٢٠٠٦
أجمل قصص الحب	د. ماهر شفيق فريد	نوفمبر	٢٠٠٦
أطلال الحداثة	فريدة النقاش	ديسمبر	٢٠٠٦
الصعود إلى المنزل	عبد المنعم رمضان	يناير	٢٠٠٧

رقم الإيداع
٢٠٠٧/٣٦٢٤
I. S. B. N
977 - 07 - 1236 - 1

الكاتب

الاسم : د. مصطفى عبدالغنى

من مواليد القاهرة

- ليسانس آداب / جامعة عين شمس ١٩٧٤ ، ماجستير فى التاريخ الحديث ١٩٨١، دكتوراه فى فلسفة التاريخ الحديث ١٩٨٨.
- رئيس القسم الثقافى (جريدة الأهرام) والأهرام الدولى والطبعة العربية،
- كاتب وناقد أدبى وثقافى ومؤرخ
- حصل على جوائز عديدة من جهات ثقافية مصرية وعربية وأهمها
- جائزة وزارة الثقافة المصرية عام ١٩٨٢ .
- جائزة نقابة الصحفيين المصريين عام ١٩٨٧ .
- جائزة المجلس الأعلى للثقافة فى (النقد الأدبى) عام ١٩٩٦ .
- جائزة أحسن كتاب عن عام ١٩٩٦ من معرض القاهرة الدولى للكتاب عن كتاب : «أحمد بهاء الدين : «سيرة قومية - دار هلا القاهرة» ١٩٩٦.
- جائزة الدولة التشجيعية فى النقد الأدبى (عام ١٩٩٧) عن كتابه «الاتجاه القومى فى الرواية» سلسلة عالم المعرفة الكويت ١٩٩٤ وطبع الكتاب أكثر من مرة .
- الجائزة الأولى من جامعة المنيا فى الثمانينات عن كتابه «شهرزاد فى الفكر العربى» .

هذا الكتاب

إنّ إكمال هذه السيرة - الرؤية - لا يتم دون إحالة القارىء لأعمالى كلها بما فيها.. إنّ كل ما أسعى إليه هنا هو استنقاذ بعض أعواد أعشاب الذاكرة قبل أن تجف تماما، واستعادة بعضها - حتى بعد أن جفت - لأعيد الإحساس بها عبر بعض (المخطوطات) التى حفظتها المصادفة من كتاباتى منذ فترة بعيدة، منذ طفولتي، ربما لملمت بعض هذه الأوراق من قبضة الزمن، وحاولت أن أعيد كتابتها بين تونس والمغرب والكويت ومصر والنمسا .. لكننى فى نهاية هذه الكتابات ، كنت أحاول - وقد اقتربت من الستين - أن أجلس ، فأكتب، كل (حالة) تستبد بى وقد أصبحت أسير (كآبة مرعبة) .

فى الفترات الأولى - الكتابات - كنت أستعين ببعض الأوراق القديمة، أو ما يحرك فىّ بعض الرحلات البعيدة والغربة، وها أنا الآن أكتب مباشرة ما أعيشه من هذا الحزن السرمدى الرهيب . حملت بعض الاوراق القديمة والمخطوطات والمذكرات وغيرها إلى أكثر من بلد فى السنوات الأخيرة لأكتب مثل هذه السيرة . حملتها معى إلى الأردن والبحرين وعمان والجزائر وإلى شارع سان جرمان فى وسط باريس وإلى مدريد بأسبانيا حيث الأبنية والكنائس والكاتدرائيات الضخمة.، وفى كل مرة كنت أستعيد قول نوح لما احتضر :

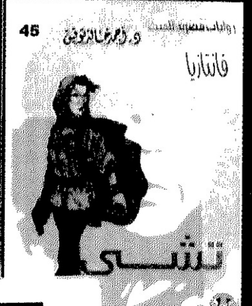
- كيف وجدت الدنيا ؟ قال كبيت له بابان دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر .. وها أنا ذا فى الباب الآخر ، الأخير .

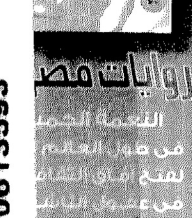
ولله الأمر من قبل ومن بعد.

روايات مصرية للجيب

لا ترجمــــة لا اقتبــاس
لا تقليد تأليف مصرى ١٠٠ ٪

مائدة حافلة مشتهاة، من أروع ما أبدعته أقلام الصفوة المتميزة من المؤلفين الشبان.







طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة - المطابع ... ية بالعباسية - منافذ البيع : ١٠، ١٦ ش كامل صدقى الفجالة - ٤ شارع الإسحاقى بمنشية البكرى روكسى مصر الجديدة - القاهرة : ٦٨٢٢٧٩٢ - ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٥٨٦١٩٧ ، فاكس : ٢٥٩٦٦٥٠ - ٦٨٢٧٠٠٢ / ٢٠٢ ج.م.ع ٤ش بدوى محرم بك - الإسكندرية .